

روايات مصرية للجيب
ماوراء الطبيعة
أسطورة
حسناء المقبرة
17
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020

مكتبة
Telegram Network
2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل سلسلة:

(ما وراء الطبيعة)

» لـ د. أحمد خالد توفيق «

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

يزن – المملكة المتحدة



TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٧

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة حسناء المقبرة

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة
الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف
الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠،٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

مقدمة

أرى بينكم ضيوفًا جددًا لم أتشرف بجلوسهم إلى مائدتي من قبل.. لهذا أرجو أن تسمحوا لي بتقديم نفسي لهم..

الاسم: رفعت إسماعيل.

السن: أدنو من السبعين أو القبر أيهما أسرع.

الحالة الاجتماعية: ذئب وحيد.

المهنة: أستاذ أمراض الدم سابقًا، وصائد أشباح هاو.

محل الميلاد: كفر بدر - شرقية..

ملامح مميزة: أصلع الرأس.. أشيب الفودين.. نحيل كعود ثقاب..

عادات: أدخن كأوتوبيس قريتي.
هل ثمة أسئلة أخرى؟.. لا أظن...
والآن تعالوا نستمع من العجوز (رفعت) - الذي هو أنا - إلى قصة جديدة رهيبة من حكاياته العديدة.. متى تنتهي قصصي؟..
يا له من سؤال!.. حين أموت طبعًا.. او حين يصيبني الشلل أو العته أو سرطان الحنجرة.. أو حين تملون
حكاياتي وتنصرفون عن مجلسي.. وأنا أشك في الاحتمال الأخير لأن جعبتي لا تزال مفعمة بحكايات لا بأس بها.. بعضها يشيب لهوله الولدان - كما يقولون - وبعضها يعدك بأمسية مسلية لا بأس بها.. لاسيما مع شطيرة وقدح شاي..

طالما ظل الشيخ (رفعت إسماعيل) قادرًا على جعلك تسهر مع كتاب بدلًا من مشاهدة التليفزيون أو التسكع في الطرقات؛ فهو مازال بصحة جيدة.. ومازال حيًا على الأقل..

سأحكي لكم الليلة حكايتي مع (براكسا) حسناء المقبرة.. تعرفون حسناء النهار.. تسمعون عن حسناء الشاطئ.. حسناء المدرسة، لكن حسناء المقبرة مصطلح فريد من نوعه.. إن لم يكن سخيفًا..

لماذا أسميتها كذلك؟..

الإجابة سهلة.. لأنها حسناء.. ولأنني قابلتها في مقبرة..

أما ما حدث بعد ذلك فموضوع يطول شرحه....

١ - فتاة..!

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعوا الخيال..

ولم أكن أعرف عن نفسي إلا ضيق الخيال.. لهذا لم أحسب كل هذا ممكنًا..

* * *

اليوم السابع من مايو عام ١٩٦٧... تذكرون أنني في هذا التاريخ بالضبط كنت غارقًا - حتى الأذنين - في مشاكلي مع غيبوبة (هن - تشو - كان) التي تأبى أن

تنتهي بالموت وهو الراحة الكبرى، أو الإفاقة وهي الراحة الصغرى..
كنت غارقًا في خواطري وأبحاثي الحائرة عن مخرج حين حدثت لي هذه القصة المختصرة.. أحداثها لم تتعد أسبوعًا لكنها جديرة - بكل تواضع - أن توضع على رف ذكرياتي جوار مصاصي الدماء.. والمذءوبين.. والنباتات المفترسة.. وكل كهنة (الأزتك) الحانقين دومًا..

* * *

في الساعات الأولى من الصباح دق جرس الباب.. فنهضت لأفتحه لأجد عمي الحاج (إبراهيم) قد وقف على الباب يدق الأرض بعصاه.. وقد غرق في العرق

والغبار بعد رحلة طويلة من قريتي إلى داري.. فما إن رآني حتى وثب يعانقني.. ويطلق السباب لسبب لا أعرفه حقًّا.. ثم بدا - كالعادة - يعلن استياءه من تدهور صحتي ونحولي وتأخري في الزواج إلى الحد الذي صار معه الأمر مريبًا..

ولم يفتني حين أدخلته الشقة أن ألاحظ النظرات المتشككة التي راح (يمسح) بها كل ركن فيها، كأنما - سامحه الله - يتوقع أن شقة العازب هي وكر للموبقات.. وأنه سيجد غانية في كل حجرة.. وزجاجة خمر تحت كل مقعد ومائدة قمار خلف كل ستار..

إنهم يتزوجون في العقد الثاني في قريتي.. وهم لا يفهمون أبدًا أن يعيش

إنسان حتى العقد الخامس من عمره دون زواج ما لم يكن مخبولًا أو فاقد الرجولة أو معوج السير..

سامحك الله يا عمي!.. أنت لم تر ولم تعرف (ماجي).. وهذا يكفي كي لا ألومك على سوء الظن..

مشكلتي مع الزواج هي أنني سريع الملل وسلبي إلى حد مفزع. ومعنى الزواج هو أن أجتاز غابة شائكة من الإجراءات والمفاوضات والمجاملات وأن - تصوروا هذا - أسافر إلى (دمياط) لانتقاء الموبيليا مع حماة متشككة رافضة لكل شيء!.. وكل هذا لأجل ماذا؟.. لأجل فتاة لا أحبها ولا أحمل نحوها أية مودة..

إن اجتياز هذه الغابة يحتاج حافزًا قويًا.. حافزًا أقوى بكثير مما تقدمه لي أية واحدة من عرفتهن..

ولقد كانت (هويدا) مناسبة إلى حد ما.. قادرة على جعلي أتحمل ما ينبغي أن أتحمله.. لكن العفن تسرب إلى علاقتنا دونما سبب مفهوم، وحين انتزعت خاتمها من يدي اليمنى أدركت أنني أنتزع آخر أمل لي في أن أصبح زوجًا أو أبًا..

دعونا من هذا الموضوع الممل..

لنعد إلى عمي الذي - حتمًا - يحمل لي موضوعًا أكثر أهمية.. جلس عمي في الصالة يجفف عرقه بمنديل كبير ويلهث.. ثم جرع جرعة كبيرة من زجاجة المياه الغازية وتجشأ ثلاثًا.. وقال:

- لقد وجدت أنك نسيتنا.. وأمك في ورطة حقيقية بينما أنت هنا يا دكتور لا يوجد ما يشغلك من زوجة ولا أولاد.. فقلت لها إن عندها رجلًا كامل الرجولة ولابد أن يكون معها في لحظات كهذه.. [صبرًا.. لا يوجد خطأ في الموضوع.. فلم تكن أمي قد لاقت ربها عندما حدثت هذه القصة.. فقصتي مع (هن - تشو - كان) تسبق قصتي مع نبات (الموكاسا).. لكن تأخري في سرد الأولى جعلها تأتي بعد الثانية.. عسير على أن أشرح لعمي أنني مشغول مع كاهن من (التبت) مصاب بغيبوبة (السيرجانتا).. لن يفهم حرفًا دعك من أن يصدقه]..
- أنت تعرف أن أباك رحمه الله - الفاتحة على روحه - ولا الضالين آمين.. أنت

تعرف أن أباك أوصاني بأن أتابع كل التفاصيل فيما يتعلق بتلك البائسة التي لا تفهم شيئًا..

فرغت من قراءة الفاتحة ومسحت وجهي بكفي.. ثم بدأت أفهم كل التفاصيل منه، والأمر يتعلق بخلاف على قيراط أرض يعتقد أخي (رضا) - تحت ضغط زوجته طبعًا - أنه حقه.. في حين تعتقد أمي وأختي أنه من حقهما..

وأنا بطبعي أنفر من هذه النوعية من المشاكل المادية التي تفرق ما بين أفراد الأسرة الواحدة، ولم يكن لي علاقة بشيء سوى بنصيب ضئيل دفعت منه أول أقساط سيارتي التي أسدد ثمنها حتى اليوم.. لكن عمي كان متحمسًا.. ولم أرد أن أبدو بشكل

المتخاذل الذي يتهرب من الحفاظ على حق أمه..

إن الأمر سيحتاج كثيرًا من الكياسة لتفادي صدام لا أريده مع (رضا) أخي الوحيد العزيز.. وكثيرًا من العبقرية كي أقنع أمي بأنني لم أظلمها..

وهكذا - ترون - تركت ميدان المعركة وارتديت ثيابي قاصدًا قريتي مع عمي، لكني لم أنس الاتصال بالمستشفى طالبًا منهم المزيد من العناية بالفتى المريض (هن - تشو - كان).....

❋ ❋ ❋

طبعًا هناك العديد من الأسرار العائلية في الموضوع، لهذا أرجو إعفائي من ذكر ما

حدث وكيف تمت تسويته.. وهذا على كل حال لن يفيد روايتنا في شيء.. لقد ولى عهد (أونوريه دي بلزاك) الذي كان يسود الصفحات بوصف شكل ومشاعر شخصية.. ثم يتضح لنا أنه يتحدث عن الخياط مثلًا.. وأن هذا الخياط لا دور له في القصة بعد ذلك بتاتًا!.. لقد كان الاستطراد هواية.. أما اليوم فالقارئ ملول لا يريد سوى ما يخدم القصة.. وهذا يناسبني هذه المرة.. (بالمناسبة... سامحوني على هذا الاستطراد الأخير..!)..

لقد انتهى الخلاف في مساء اليوم السابع من مايو.. أي أنني قضيت في قريتي أقل من يوم، وعلى طريقة الدبلوماسي الذي يقنع كل طرف بأنه نال قطعة أكبر من

الكعكة.. نجحت في أن أقنع أمي بترك القيراط لـ (رضا) ونجحت في أن أقنع (رضا) بترك القيراط لأمي..!..

ثم ودعتهم جميعًا - أمي وأختي و (رضا) و (طلعت) - غير عالم أنني أودع أمي الوداع الأخير.. أنتم تعرفون قصة وفاتها من كتيب سابق لهذا لن أعيد سردها..

وفي الثامنة مساء ركبت سيارتي عائدًا إلى القاهرة..

* * *

طريق (كفر بدر) المتجه إلى (فاقوس) غير مرصوف.. ويشعرك السير فيه بأنك جالس في خلاط أسمنت سريع..

أنت تعرف هذه الطرقات الريفية غير الممهدة، الضيقة كمسافة بين سطرين، تحفها من الناحيتين أشجار عجوز تتهدل أغصانها المنهكة، على حين تجري على أحد الجانبين مياه قناة أو مصرف تكسوها طبقة كثيفة من الطحالب الخضراء.. وفوق كل جزيرة من هذه الطحالب ترى فقاقيع ماء تروح وتجيء.. وصوت نقيق ذكور الضفادع إذ تحاول الظفر بأمسية صيف دافئة. ومن بعيد - خلف الأشجار - يلاحق البدر سيارتي، وعلى وجهه تلك البسمة الوقحة التي أمقتها..

ذكرني البدر بالمذءوبين...

من يدري؟.. لربما خلف شجرة ما يرفع أحدهم عقيرته نحو القمر وينتظر.. ينتظر

البائس الذي يمشي على قدميه في هذا المكان المخيف.. سرت القشعريرة في ظهري وتنهدت..

لا يوجد مذءوبون.. أنا واثق من هذا.. بل أثبت الحقيقة بنفسي في سهول (رومانيا).. لكنه - مرة أخرى - الخوف الغريزي غير المبرر من كل ما نجهله..

إن طابع الرعب المحلي يتباين جغرافيًا من مكان لآخر.. فوسط ثلوج (رومانيا) وأشجار الصنوبر المكسوة بالجليد يمكنك أن تحلم بالمذءوبين وتخشاهم.. أما في (جامايكا) بأمطارها الحارة يكون السحر الأسود و (الفودو) مناسبين للجو.. القلاع تناسب مصاصي الدماء أكثر.. أما في

قريتي وحقول الذرة فإن الطابع المحلي للأساطير يأخذ تيمة النداهة والجان.. إلخ..

إن رؤية مذءوب في ريف مصر أمر شاذ وغير متوقع.. أمر لا (يليق) بالبيئة كأنك ترى عازف طبل بلدي وسط أوركسترا.. أو مباراة تنس جوار مصرف المياه الآسنة في قريتي.. لماذا تدافعت هذه الخواطر إلى ذهني في هذا الوقت؟.. ربما لأنني - رغم الشيب المحتشد على جانبي رأسي – ما زلت طفلًا.. طفلًا يتسلى بإفزاع نفسه حتى الموت، ويتلذذ بكونه آمنًا داخل السيارة المغلقة فيخلق خياله ألف شبح وشبح خارجها..

❋ ❋ ❋

ومن بعيد لاحت لعيني تلك القباب الصفراء الكئيبة تستحم في ضوء القمر البارد..

إنها المقابر.. مقابر قرية (كفور داود).. وهي بالنسبة لمن يعرف طريق قريتي الوعر علامة على أن ثلاثة كيلومترات تفصله عن (فاقوس)[1].. وأنا أحب المقابر.. أحب طابع الحزن الصامت المخيم عليها.. وأحب كونها المكان الوحيد الذي يكف ساكنه عن إيذاء الآخرين للأبد..!

تمتمت بكلمات الفاتحة وأنا أرمق الشواهد البدائية المصنوعة من الطين وقد غطيت بطبقة متآكلة من الجير، وعليها أسماء ساكني القبور بخط طفولي مكتوب بالطبشور غالبًا...

كنت أوشك على الابتعاد حين لمحت عيناي شيئًا ما... على جانب الطريق - إذا أمكننا تسميته كذلك - كانت تلك الترعة الراكدة بمياهها المغطاة بالطحالب..

لم تكن ضيقة.. ولم تكن واسعة.. مجرد ترعة بريئة أخرى.. لكنني أدركت أن شيئًا ما يحدث تحت مياهها.. تلك البقعة الغامضة من النور الأصفر تضيء المياه وما حولها، وتنعكس لتضيء دائرة لا بأس بها من جذوع الأشجار المدلاة في تراخ حول الترعة وهأنذا أدنو أكثر.. فأكثر...

وعلى كشافات سيارتي يتضح لي المسرح أكثر، ويسقط قلبي في قدمي ذعرًا..

إن ما أراه لهو سيارة - هيكل سيارة - قد هوت في مياه الترعة مائلة، فانغرست مقدمتها وأكثر من نصفها رأسيًا تحت الماء.. وقد ظلت أضواؤها سالمة مرسلة ذلك الضوء العجيب كأنما الترعة تتوهج ذاتيًا.. لابد أن هذا الحادث طازج ما دامت البطاريات لم تنفد أو يتخللها الماء..

وكذا لم يكن أمامي سوى أن أوقف محرك سيارتي وأترجل.. في توجس أدنو من مسرح الحادث.. ببطء وذعر.. ولم أنس - طبعًا - أن أدس قرص (النيتروجلسرين) تحت لساني تحسبًا لما قد أراه.. وعند حافة الترعة توقفت...

استدرت للخلف فرأيت المقابر صامتة تنتظر على الجانب الآخر من الطريق

كأنها جمهور مسرحية.. وأنا الممثل الأوحد بها.. ثم عدت أرمق المشهد الذي أمامي..

السيارة في وضعها الرأسي وسط المياه تبدو كوحش أسطوري يرشف المياه ليروي ظمأه.. ثم لن يلبث أن يرفع وجهه ويراني.. و عندئذ....

لكنني دنوت أكثر.. لا أستطيع أن أميز أي شيء من داخل السيارة.. لكن حتمًا يوجد راكب أو اثنان.. ربما أسرة بريئة كاملة.. بالتأكيد لقي السائق حتفه.. ولكن هل ثمة آخرون..؟..

وعلى ضوء القمر القاسي استطعت أن أميز ماركة السيارة.. سيارة (أوبل) من

طراز عتيق نوعًا.. على لوحتها كتب (ملاكي القاهرة – ٧.. ٢.. ٣.. ٤..٥)..

أشعلت سيجارة وعلى ضوء اللهب الخافت المنبعث منها شرعت أتأمل موقفي.. أنا لا أجيد السباحة وأعتبر طفو إنسان فوق الماء - متحديًا كل قوانين الطبيعة - نوعًا من معجزات الأولياء..

إذن لا يوجد سبيل أمامي سوى الذهاب إلى قرية (كفور داود) والعودة بعشرة رجال أشداء مفتولي العضلات ممن يمارسون معجزة السباحة ليساعدوني في إنقاذ هؤلاء التعساء، هذا بالطبع إذا كان هناك من بقي منهم....

وهنا سمعت صوت الأنين....

وعند قدمي أدركت أن هذه الكومة المتشابكة من الطحالب والطين والثياب الممزقة لم تكن مجرد كومة.. لقد كانت هناك يد بشرية متشنجة تحاول التشبث بسيقان نبات (ذيل القط) الذي ينمو بكثرة على حافة الترع..

وحين انحنيت أكثر أدركت أن هذه اليد تخص كائنًا حيًا يحاول في استماتة أن يخرج من الماء....

كانت يد فتاة........

❋ ❋ ❋



وحين انحنيت أكثر أدركت أن هذه اليد تخص كائنًا حيًا يحاول في

استماتة أن يخرج من الماء ..

٢ - اسمها (براكسا)..

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..

وأنا لست واسع الخيال.. لكني بشر.. ومن أبسط حقوقي الآدمية أن أرتجف خوفًا حين أرى ما يدعو لذلك..

*   *   *

تشبثت يدها بيدي...

يدها الباردة كالثلج.. المبتلة كأحضان (بوسيدون)[2].. سأظل أذكر ما حييت ذلك

المشهد الدرامي المصاحب لخروجها البطيء من الماء وشعرها مختلط بالطين والأعشاب، وجسدها - الذي كان مغمورًا كله - أشبه بجسد تنين أسطوري يخرج ببطء من المياه..

أنا عشت موقفًا شبيهًا حين أخرج وحش (لوخ نس) عنقه العملاق من تحت مياه البحيرة، لكني - أعترف - لم أشعر ساعتها بهذا الشعور المقلق الغريب.. في (لوخ نس) كان الفزع مجسدًا وكاملًا وواضحًا.. أما هنا فهناك جو رهيب من الغموض لا أستسيغه كثيرًا..

(آثار أقدام الدب أكثر إفزاعًا من الدب نفسه).. مثل روسي لم يسمعه الروس من قبل لأنني أنا مؤلفه الوحيد.. وإنني لا

أرجو أن يضمه الأخوة الروس إلى قائمة أمثالهم المتعلقة بالدببة..
لهثت.. استجمعت قواي المتهالكة حتى نجحت في إخراج باقي الجسد من الماء.. وعندئذ فقط أطلقت يدها سراح يدي..
وهناك - عند قدمي - تكورت تلهث وترتجف..
انحنيت راكعًا على ركبتي وربت على كتفها المبتل..
- الحادث.. السيارة.. فـ.. فجأة...
- لا عليك.. أنت على ما يرام الآن.. اهدئي بالًا..
كانت في حال شبه هستيرية، وتصدر هذه الأصوات التي يختلط عليك كنهها.. أبكاء

هي أم ضحك.. ولا ألومها كثيرًا في الواقع..

- هل أنت مصابة؟

- لا أدري.. لا أدري.. السيارة.. الـ....

- هل كان معك أخرون؟.

- لا.. وح.. وح.... هيييه!

واخذت تشهق وتزفر وتسعل مرارًا لا حصر لها.. ثم إنها ألقت برأسها المبتل الذي تفوح منه رائحة الماء والطحالب على كتف بذلتي الجديدة.. مشكلة أن تكون شهمًا هي اضطرارك للتضحية بأشياء أخرى غير راحتك وحياتك.. ربما اضطررت للتضحية بثيابك أيضًا وهذا أسوأ ما في الأمر..!

ساعدتها على النهوض على قدميها ببطء وهي ما زالت مستندة إلى كتفي، وسرني أنها تحرك أطرافها جميعًا دون ألم، فلا يوجد كسر إذن، وهي متنبهة واعية فلا يوجد ارتجاج مخ إذن، دعك من أن يكون هناك نزف داخلي فهذا احتمال لن يتضح إلا بعد قليل..

ببطء ساعدتها على السير..

- إلى أين؟

قالتها بصوت واهن.. ويا له من سؤال!..
أنا أمقت الأسئلة الغبية:

- إلى سيارتي طبعًا.. سنقصد المستشفى في (فاقوس) أو إذا شئت..

- لا!..

بعصبية لا مبرر لها في الواقع.. ثم هدأت لهجتها قليلًا وأردفت:

- أنا بخير.. لا مستشفى أرجوك.. أريد أن.. أبتعد..

- ليكن...

ودنونا من السيارة ففتحت لها الباب الأيمن فألقت بجسدها على المقعد وطوحت رأسها إلى الوراء حتى حسبته موشكًا على أن ينفلت منها ويتدحرج إلى المقعد الخلفي، درت حول مقدمة السيارة لأجلس في مقعد السائق ثم أدير المحرك.. كرووووورك!.. توتوتوتوه!..

ولم يفتني أن ألقي نظرة أخيرة إلى مشهد السيارة الغارقة في الماء بينما أضواؤها تبعثر ذلك الضوء المهيب تحت صفحته..

وعلى بعد أمتار كانت المقابر ترمق ختام المشهد في فضول.. خيل لي أنها تتثاءب استعدادًا للنوم بعد انتهاء العرض المسرحي المشوق.. وعادت معالم الطريق تزحف إلى دائرة نور السيارة.. مرافقتي ما زالت تنظر بعينين زائغتين إلى سقف السيارة، وقد ارتخى جسدها كله كوتر كمان تمزق من فرط العزف..

اختلست نظرة جانبية إليها..

جميلة هي دون شك.. برغم كل شيء أستطيع أن أميز شعرها الطويل الفاحم.. وأنفها الأقني.. وشفتيها المنفرجتين قليلًا عن صرخة صامتة.. وكانت ترتدي فستانا في حال مزرية، لكن من الواضح أنه كان أنيقًا محتشمًا أزرق اللون قبل أن يحوله

الحادث إلى خرقة مبتلة تصلح لتلميع الأثاث.. وكانت قد فقدت حذاءها.. وبالطبع حقيبتها..

سألتها وأنا اثبت عيني على الطريق:

- من القاهرة؟

- هم م م م!

- وما اسمك؟.. أنا (رفعت إسماعيل).. طبيب بشري..

- اسمي (براكسا نجيب)..

قالتها وكأنها لا تجد غرابة في الاسم.. تساءلت عن الاسم من جديد لأتأكد أن سمعي لم يخني.. فقالت في شيء من نفاد الصبر:

- (براكسا).. بـ..ر..ا.. كـ.. سـ..ـا.

- يبدو أن أباك مولع بالأدب اليوناني..

كنت أتحدث طبعًا عن مسرحية (براكسا) للساخر اليوناني العظيم (أرستوفان).. وهي المكان الوحيد الذي سمعت فيه اسمًا مماثلًا.. قالت الفتاة وهي ما زالت ترمق الطريق ورأسها راجع للوراء:

- لم يخنك الظن كثيرًا.. الواقع أن أمي يونانية.. وهي التي اختارت لي هذا الاسم..

غريب هو اسم (براكسا)... غريب ورهيب وأسطوري.. يوحي بشيء ما لا يمكن وصفه.. شيء أزلي كالكون نفسه.. غامض كالظلام.. رهيب كأنشودة الريح عبر الوديان المنسية.. (براكسا).. أية صعوبات سببها لها اسم كهذا لا يمكن أن يكون الموظفون قد كتبوه كما يجب في

شهادة ميلادها وشهادة تخرجها و... و...؟.. ربما تحول معهم إلى (برديس) أو (نرجس) أو (براءة) أو أي اسم مشابه..

- وماذا جاء بك إلى هنا يا آنسة.. أو هل أقول يا (سيدتي)؟

- آنسة.. وجئت هنا لأن....

وصمتت هنيهة.. نظرت نحوها بطرف عيني لأعرف لم صمتت.. لمحت شفتيها تختلجان.. وتكورت تفاحة آدم في عنقها فأدركت أنها تبتلع ريقها قبل أن تجيب.. ثم إنها تنهدت وهمست:

-.. أرجوك لا داعي لرفع الكلفة.. إن لي أسبابي الخاصة التي أرجو إعفائي من ذكرها..

شعرت بالدم يحتشد في أذني خجلًا.. يا لي من متطفل سخيف..!.. ليكن إذن.. هذه الفتاة لا تحب التدخل في خصوصياتها باعتبار وجودها في سيارة على طريق (كفر بدر) اللعين وحدها ليلًا أمرًا لا يثير الفضول.. هل كانت تزور أقاربها؟.. لا يبدو هذا التفسير مستساغًا لي...

على كل حال الوقت يمضي.. مددت يدي إلى علبة التبغ وسحبت سيجارة ولم أنس أن أقرب العلبة منها فجذبت لفافة تبغ لنفسها.. هي إذن من الطبقة التي تدخن فيها النساء.. وهما طبقتان في (مصر): طبقة الفتيات المدللات رائدات أندية التنس و (بابي) و (مامي)، وطبقة نساء الأحياء الشعبية الفقيرة.. إذن فهذه الفتاة -

بالاستبعاد - مدللة تعاني من الفراغ والملل وتتسلى بقراءة الوجودية قبل النوم[3]..

قربت عود الثقاب المشتعل من طرف لفافتها.. وتأملت وجهها على ضوء اللهب المتراقص.. كانت شاحبة إلى حد غير عادي.. وثمة هالات سوداء على جفنيها السفليين.. هذا شيء متوقع بالطبع..

وهنا وجدت عينيها مرفوعتين نحوي تتفحصاني بنفس الاهتمام!.. أجفلت واعتراني الحرج والارتباك..، ثم إنني قربت اللهب من طرف لفافة تبغي.. وتصاعد الدخان الأبيض، وعدت أركز عيني على الطريق...

- كيف سقطت السيارة في الماء؟

سعلت قليلًا من صدر واضح أنه اعتاد الدخان.. وقالت بإنهاك:
- لا أدري.. لو عرفت ما حدث لتجنبته.. كنت مسرعة ولم أدر أين تبدأ الترعة وأين تنتهي.. فجأة لم أجد أرضًا تحت العجلات.. لا شيء سوى الظلام.. مياه باردة تتسرب إلى صدري.. فتحت باب السيارة وكافحت عبر المياه حتى أصل إلى جانب البركة.. و....
ساد الصمت بضع دقائق.. ثم إنني سألتها:
- هل جئت لزيارة المقابر؟
- نعم...
- ولماذا؟.

مرة أخرى تعيد رأسها للوراء مريحة إياه على مسند الرأس.. وتنهدت:

- إن أبي هناك...

* * *

القاهرة.. يا مدينتي العجوز المنهكة..

الشوارع مازالت مزدحمة برغم أننا في منتصف الليل.. إنه ليل الصيف الحار الذي يطرد الناس طردًا إلى الطرقات.. وزحام الأضواء الباهرة الملونة بينما صوت (أم كلثوم) يتردد من مكان ما يشدو (هذه ليلتي)....

وكانت الفتاة - عليها اللعنة - قد احرقت خمس لفافات تبغ من علبتي، ووجهت لي مائة رد مُسكت على أسئلتي الفضولية..

لماذا تتصور هذه الحمقاء أنني أتطفل أو أحاول مغازلتها؟.. لقد صرت كهلًا منهكًا لا يفكر في شيء سوى حاجته الماسة إلى النوم.. ولولا بقية من حياء عندي لقلت لها إنها لا تمثل لي سوى عقبة في طريق العودة إلى داري.. فالعشاء.. فالحمام.. فالنوم إلى ساعة متأخرة من صباح غد....

أشد ما يثير حنقي هو أن تفترض فتاة سوء النية فيك بينما أنت لا تعبأ بها أصلًا.. وتبدأ في تفسير تهذيبك وعنايتك الرجولية على أساس من خيالها المريض النرجسي..

- إلى أين تريدين أن أصحبك؟

قلتها وتوقعت أن تقول لي (الزمالك) أو (جاردن سيتي).. لكنها لم تقل شيئًا من هذا...

- كل الأماكن تتساوى عندي!
ماذا؟.. هذه الفتاة - إذن - فيلسوفة عبثية من تلاميذ (كامي) لا تجد فارقًا بين أي وضع وآخر.. أو هي مخبولة تمامًا وأنا أميل إلى ترجيح هذا الاحتمال الأخير.. إن الفلاسفة لا يمشون في المقابر ليلًا....

- ماذا تعنين بالضبط؟.. أين عنوان دارك هنا؟

- ليست داري هنا.. ولا في أي مكان على وجه الأرض!
نظرت لها في حيرة.. كانت محتفظة بذات الوضع العجيب.. حتمًا هي مصابة بصدمة عاطفية من هول ما رأته.. فلأكن بها رفيقًا..

- إذن.. من أين جئت؟

- جئت من حيث وجدتني..

وابتسمت ابتسامة غامضة دون أن تنظر نحوي.. وأردفت:

-.. جئت من المقابر...!

❋ ❋ ❋

٣ - غريبة الأطوار..

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..

وأنا لم أر شيئًا غير عادي.. لكن كلام هذه الفتاة لم يرق لي كثيرًا.

❋ ❋ ❋

سألتها في نفاد صبر:

- إذن أين تتوقعين أن آخذك؟

- لا أدري..

سئمت هذا الجنون.. من حقها المطلق أن تجن وأن تصاب بالانهيار العصبي.. وأن تعتقد أن مكانها هو حيث دفن أبوها، لكن ما ذنبي أنا في كل هذا؟.. أنا الكهل البائس الذي لا يرجو من الناس سوى تركه وشأنه..

- إذن انزلي هنا!

قلتها لها بغلظة ضاغطًا على الفرملة وأوقفت السيارة على جانب الطريق.. توقعت منها احتجاجًا ما.. لكنها فتحت الباب المجاور لها ببساطة وترجلت.. أدرت المحرك في عصبية وكدت أبتعد حين....

آه أيها الضمير الراقد كالثعبان في أعماقي!.. تبًا لك!.. لماذا تحركت في بطء

لتلومني على ترك هذه الفتاة المنهكة الكليمة وحيدة في شوارع القاهرة بلا نقود ولا حذاء؟!..

وجدتني أتقهقر للوراء وأجذب فرملة اليد.. ثم أهيب بها أن تركب ثانية ولم تكذب هي خبرًا فتحت الباب وألقت بنفسها على المقعد..

- إذن لا مكان تنتوين المبيت فيه الليلة؟.

- تؤ!

أصدرت بشفتيها هذا الصوت المعرب عن الرفض المتضجر..

- أنا أعيش وحدي ولن أستطيع اصطحابك لداري..

- تؤ!

- إذن أسلمك إلى قسم الشرطة وهم قادرون على العناية بك..

- لا.. أرجوك!

فليكن.. سآخذها إلى أحد الفنادق وأحجز لها غرفة على حسابي.. يمكنني غدًا أن أمر لأجدها في حال معنوية أفضل تسمح بالتفسير..

* * *

وكان أول فندق دخلناه راقيًا إلى حد ما.. موظف الاستقبال شاب وسيم مملوء بالحيوية - في منتصف الليل - حيانا في حرارة.. فقلت له:

- نريد غرفة للآنسة..

طلب أوراقها الشخصية فلم يجد.. بدا متشككًا مرتابًا وتبدل أسلوبه في ثوان إلى التحفظ المهذب.. ثم قال إنه آسف وإنه يعتقد أن ذلك مستحيل حتى بالضمان الشخصي مني..

شكرناه، وخرجنا نجوب المدينة الواسعة بحثًا عن فندق يقبل فتاة دون أوراق رسمية.. هناك فنادق تقبل ذلك وأكثر لكنها مملوءة بالبق.. وسمعتها ليست فوق مستوى الشبهات، آخر فندق من هذا النوع أقمت فيه منذ أعوام.. وكان خادم الفندق يفتش غرفتي ركنًا ركنًا وأنا أتظاهر بالنوم.. ثم يقسم - بالطلاق - أنه لم يدخل غرفتي وأن الفندق مسكون..

إنها الواحدة صباحًا....

ولا أمل يدلني على إمكان التخلص من هذه الكارثة..

* * *

في النهاية استجمعت شجاعتي واقترحت عليها أن تبيت الليلة في داري.. فقد نام الجيران والبواب، ولن يكون عسيرًا أن تتسلل إلى هناك..

- وأنت.. أين تبيت؟

- سأجد مخرجًا.. أنا رجل، وشوارع المدينة ترحب بالرجال بعد منتصف الليل.. لكنها تقسو على النساء أيما قسوة..

توقعت أن تشكرني وتصارحني كم أنا رائع.. لكنها لم تقل شيئًا مما دعم من وجهة نظري بخصوص كونها مدللة غير

ناضجة.. وهي تتوقع أن من حقها الحصول على كل ما يتطوع الآخرون بتقديمه لها..، فإذا أنا تركت لها داري فلأنني ذكي وأعرف ما ينبغي أن أفعله..

أوقفت السيارة أمام مدخل البناية المظلمة.. ونزلت منها ومسحت شرفات الحي بعيني لأتأكد من أن أحدًا لا يقف في شرفة داره.. ثم تأكدت من أن غرفة البواب - في المدخل - مغلقة، لا أريد إفساد سمعتي بعد كل الأعوام التي حاولت فيها أن أقنع الجيران بأنني ملاك أصلع الرأس..

- بست!.. هيا!.

ناديتها بذلك الهمس المسموع.. فنزلت من السيارة وتقدمت داخلة من المدخل المظلم..

حافية القدمين لحسن الحظ فلا تحدث قرقعة الكعبين الأنثويين الكفيلة بإيقاظ الموتى.. خفيفة الحركة كالثعلب تسرع إلى صعود درجات السلم الرخامية خلفي.. وقلبي يتواثب كالطبل في صدري..

- ألا يوجد مصعـ...؟

- ششششت!

وسبقتها إلى باب شقتي ففتحته حتى لا تقف هي على الباب فترة.. فما إن انسلت إلى الداخل حتى سمعت صوت باب ينفتح في الطابق السفلى.. فهرعت أنظر من أعلى ليراني هذا المتلصص.. وجدت وجه الأستاذ زكريا - الحانق دائمًا كأحد آلهة (الأوليمب) – ينظر لي من أسفل..

ابتسمت في حرج لكنه لم يبتسم.. وسمعته يقول:

- (د. رفعت)!.. أريد الكلام معك حالًا!

- ألا يمكن الانتظار حتى الصباح؟

- لا.. الأمر يتعلق بسمعة وسلامة هذه العمارة!

- إذن لا تصعد!.. أنا أت إليك!



وسبقتها إلى باب شقتي ففتحته حتى لا تقف هي على الباب فترة ..

وواربت الباب خلف الفتاة وهرعت أنزل درجات السلم واجف القلب.. لن أستطيع أبدًا تبرير وجود هذه الفتاة.. إنها الفضيحة القاضية على سمعتي.. سيعرف هذا الرجل أن شكوكه كانت حقيقية وسيوقن عمي أنه لم يأثم بسوء الظن..

سأتحول إلى الوباء الذي تخشاه كل الاسر هنا.. ويالها من كارثة!.. أنا المتحفظ المنغلق المتظاهر بأنه يحمل كبرياء الطب ذاته..

ها هوذا يقف على باب شقته يرمقني في ارتياب.. ها هوذا ينظر لأعلى.. ثم ينظر لي.. ويوارب باب الشقة حتى لا يسمع أحد من (حريمه) ما سيقوله لي من مواضيع مشينة بالتأكيد..

- كنت أريد أن أقابلك لأقول لك...
- خيرًا إن شاء الله؟.
- أنت تعرف عاقبة العبث!
- لا سمح الله!
- وبرغم ذلك.. برغم ذلكٍ....
وارتجف من الانفعال باحثًا عن الكلمات.. ثم استطرد:
- برغم ذلك كدت تقتلنا جميعًا بهذه المغامرة اللعينة مع هؤلاء الآسيويين الذين هاجمونا في عقر دارنا..!
آه ه ه ه ه!..
إنه يتكلم عن (هن - تشو - كان) ومغامرة القتلة الذين كانوا يريدون كتاب (الشوكارا).. نسيت هذا الموضوع تمامًا ونسيت أن الكاهن الأخير مازال في العناية

المركزة.. وأنا الذي ظننته يتحدث عن....... حمدًا الله!..

- بالمناسبة.. كيف حال ذلك الفتى الباسل؟

- مازال في غيبوبة.. لكنه حي على الأقل..

- أرجو له الشفاء.. والآن أتمنى لك ليلة طيبة.. ولا تنس ما قلته لك.. أنت مسئول عن الآخرين كما أنت مسئول عن نفسك..

- سأتذكر هذا.. عمت مساء يا سيدي..

وصعدت السلم غير مصدق أنني نجوت..!

❋ ❋ ❋

أغلقت باب الشقة في هدوء، ودخلت لأجد الفتاة واقفة تتأمل تماثيل (الزولو)

الموضوعة على البوفيه..
دخلت غرفة النوم فأخذت كل النقود التي أضعها في الخزانة، وجمعت بعض الأشياء التي قد تكون ثمينة فوضعتها في جيبي.. ثم أغلقت الغرفة التي تحوي جهاز التسجيل والمكواة بالمفتاح ودسست هذا الأخير - أيضًا - في جيبي.. فمن أدراني أن هذه الفتاة ليست لصة؟.. من الحماقة أن أترك شقتي لمن رأيتها أول مرة منذ ثلاث ساعات.. وعلى كل حال لا أظنها قادرة على سرقة الفراش أو الثلاجة حتى لو أرادت..
وخرجت لها حيث وقفت في ضوء الصالة تتأمل ذات التماثيل.. فأخذت بيدها الباردة المترددة إلى الداخل.. وشرعت أشرح لها:

- ترين.. ها هي ذي غرفة النوم.. ستنامين بثيابك أو بمنامتي التي تركتها لك على الفراش.. هنا الثلاجة وبها بقايا طعام وبعض البيض.. لا تنسي إطفاء الموقد.. الحمام من هنا.. والآن وداعًا.. سأعود صباحًا.. لا تحاولي إغلاق الرتاج لأنه ليس عندي واحد!.. اعتدت منذ بضع سنوات أن أغلق باب الشقة بالمفاتيح من الداخل عند النوم.. وأنا لن أترك لك المفاتيح لأنني لا أثق بك طبعًا!

وتركتها واقفة أمام الحمام.. مبعثرة الشعر.. حافية القدمين.. مشوشة الفكر، وواربت الباب خلفي....

❋ ❋ ❋

بالطبع لم أذهب بعيدًا..

لماذا أذهب بعيدًا ما دام جاري (عزت) غير متزوج ومولعًا بالسهر؟.. سرت بتؤدة إلى الشقة المجاورة وقرعت الجرس دون كياسة.. فسمعت عبارات السباب من الداخل.. وأضاء (عزت) مصباح السلم.. ثم فتح الباب ليسألني في حنق:

- ماذا هنالك يا (رفعت)؟.

- إنه ذلك المفتاح اللعين مرة أخرى.. أظن أنني سأبيت عندك الليلة...

- يا لك من مزعج!.. ادخل...

كانت شقته قد تحولت إلى (أتيليه) صريح عامر بالتماثيل في مرحلة الإعداد أو الانتهاء منها.. وبصعوبة وجد لي مكانًا أجلس فيه.. أرجو ألا يسألني عن رأيي في

تماثيله، فالحقيقة هي أنني لم أحبها قط، إنه يحاكي الطبيعة أكثر من اللازم.. وأنا لا أحب الفنان (الكاميرا).. من المفترض أن يحدث تطور واسع لرؤية الفنان للواقع منذ عهد (مايكل أنجلو) حتى الآن.. أما أن يقضي هذا الفتى وقته في محاكاة تشريحية محكمة للواقع فأمر لا أستسيغه بحال..

شرع يثرثر عن أعماله الرائعة حتى دنا الفجر.. وأنا أريد أن أنام..

وهكذا جاءت اللحظة التي أغمضت فيها عيني متجاهلًا قواعد اللياقة تمامًا.. كم من الوقت نمت؟.. لا أدري..

لكنني فتحت عيني لأجدني نائمًا فوق أريكة عتيقة في الصالة وفوقي ملاءة ممزقة.. وكانت الشمس تأتي من مكان ما..

وعند رأسي وجدت (عزت) يهز كتفي في كياسة حتى لا يفزعني..

- (عزت).. ماذا حدث؟..

- لا شيء يا (رفعت).. لا تخف.. لكني أعتقد أن أشياء غير عادية تحدث في شقتك الآن!

* * *

٤ - وحين تختفي..

الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..
و (عزت) فنان.. ولأنه فنان فهو حتمًا واسع الخيال.. وإنني لأسائل نفسي عن حقيقة ما رآه....

* * *

جلست أفرك جفني محاولًا أن أصحو.. ووضعت النظارة على أنفي فعادت الموجودات تتحسن.. كجهاز تليفزيون

يعمل دون هوائي ثم قمت بتركيب الهوائي له!...

- تقول أشياء غير عادية؟

كان منفعلًا إلى حد غير عادي لكنه يتظاهر بالاتزان.. وقد قال لي وهو يركع على الأرض جواري:

- فتحت بابي منذ ساعتين لأتخلص من القمامة.. وما إن خرجت إلى بسطة السلم حتى خيل لي أن شيئًا غير عادي يحدث.. دققت البصر أكثر فرأيت ضوءًا أحمر يخرج من فرجة الباب السفلى لشقتك.. ضوءًا أحمر يتحرك بإصرار..

واتسعت عيناه ونبتت قطرات عرق على جبينه..

-.. ظننت أنها ظاهرة بصرية ساعد الإرهاق والظلام على إيجادها.. فتجاهلت الأمر، ثم عدت أواصل عملي هنا جوارك بعد ما غطيتك بملاءة.. كان نومك عميقًا كمومياء (أمنمحات).. لهذا تركتك وخرجت للشرفة.. لم يكن الفجر قد أشرق بعد.. لهذا كان غريبًا أن أرى ذات الضوء الأحمر خارجًا من نافذتك المغلقة ما بين خصاص الشيش.. بل وكان يفترش الشرفة قادمًا من فرجة الباب السفلى.. (رفعت).. أنا لا أعرف ما في شقتك لكنه - حتمًا - شيء مضيء كالشمس.. وضوؤه أحمر باهر كستائر مصاصي الدماء.. فما هو؟.

أي كلام بلا معنى يردده هذا المعتوه؟.. ضوء أحمر في شقتي؟.. لا يوجد عندي

أي مصدر له..
ثم إنني تذكرت الفتاة.. (براكسا).. ماذا فعلته هذه المخبولة حين تركتها وحيدة؟.. أتراها أشعلت حريقًا أو أشعلت الموقد ونسيته؟.. أم...

- ولماذا لم توقظني عندئذ؟.
- حاولت ولكنك كنت نائمًا مثل...
-.. أعرف.. أعرف.. مثل مومياء (أمنمحات)..
- بل كالدب القطبي في (فبراير).. ثم كانت هناك الضوضاء!
- ضوضاء؟
- كان هناك شيء يصطدم بباب الشقة بإصرار مريب.. ليس بقوة ولكن بإصرار كأنك حبست قطًا هناك..

كان الموضوع قد بلغ حدًا لا يطاق..

وهرعت إلى مفاتيح الشقة فتناولتها لأفتح الباب وأعرف ما هنالك.. كاد (عزت) يلحق بي ليروي فضوله، لكني سددت الطريق أمامه.. قائلًا له أن ينتظر حتى أعود إليه وأن يراقب السلم بعناية..

وبيد ملهوفة زججت بالمفتاح في الكالون.. ودخلت.. لم يكن الظلام دامسًا بالداخل لأن النهار بدأ يتسرب من نافذة المطبخ والحمام.. لهذا لم يكن عسيرًا أن أرى الصالة، ولا أدري لماذا آثرت الصمت..؟..

❋ ❋ ❋

"ليست داري هنا.. ولا في أي مكان على وجه الأرض...".

* * *

كانت غرفة النوم مفتوحة.. فدنوت منها في حذر ونظرت عبر الباب.. لم تكن هناك.. كان الفراش مرتبًا كأفضل ما يكون، وقد تم طي منامتي فوق الوسادة بتلك الطريقة المنمقة الأنيقة التي لا تأتي إلا من يد أنثى.. ولم يكن صعبًا أن أستنتج أنها نامت بها من الثنيات الواضحة في النسيج ورائحة (الشانيل) التي تفوح منها.. تفقدت الشقة فلم أجد أثرًا لها..

فتحت الثلاجة فوجدت البيض كاملًا والجبن وفخذ الدجاجة في نفس الحال التي

تركتهما عليها.. هي - إذن - لم تصب شيئًا من الطعام.. حتى الحمام كان غير مبتل والصابونة جافة تمامًا..
إذن هي صحت مع الفجر فبدلت ثيابها وخرجت في سكون.. دون أن تأكل شيئًا أو حتى تغسل وجهها....
ترى هل استعادت روعها أم أن هذه المغادرة المفاجئة هي نوع آخر من انهيارها العصبي؟.. كان المفترض أن تنتظر عودتي لتوجه لي عبارة شكر.. أو تطلب مني تسهيل خروجها.. أو على الأقل تطلب مني شراء حذاء لها.. غريبة الأطوار هي.. غريبة الأطوار ومجنونة قليلًا..

لكني تساءلت بيني وبين نفسي: ترى هل أراها ثانية؟

* * *

عدت إلى (عزت) واخبرته أن لا مشكلة هنالك..

- ليكن.. والآن يمكنني أن أنام ملء جفوني.. دعني أؤكد لك أنني لا أخرف ولست من النوع الذي يستسلم للرؤية الهستيرية: أقسم لك إنني رأيت هذا الضوء وسمعت تلك الضوضاء..، لكن ما دامت شقتك بخير ولم تحترق بعد فأنا مطمئن.. و....

ثم نظر إلي في شك وقطب حاجبيه وقد تذكر شيئًا:

- لحظة!.. كيف دخلت شقتك وأنت قلت لي أمس إن مفتاحك لا يستجيب...؟!

يا لشرود ذهني!.. صحيح أن الكذب ليست له قدمان.. لكن المزيد من الكذب ليس عسيرًا..

قلت له في سرعة:

- كنت منهكًا وجربت المفتاح الخطأ.. هذا هو كل شيء..

- يا لك من رجل عصبي عجول يا (رفعت)..!.. هذه الأشياء لا تحدث إلا لك.

كم أحبك يا (عزت)..!.. بمرضك العضال وغرابة أطوارك.. من المؤسف أن مواعيدنا متناقضة تمامًا وإلا لصرنا صديقين لا نفترق.. إن الوطواط لا يعيش مع العصفور أبدًا.. الوطواط الذي يسهر

الليل كله وينام النهار.. والعصفور الذي ينام الليل بطوله ويسهر النهار إذا صح هذا التعبير.. ثم إنك لا تستقر في دارك.. على الأقل حينما أقرع بابك....

تمنيت له نومًا طيبًا وتركته عائدًا إلى شقتي....

❋ ❋ ❋

مضيت أتفقد الشقة باحثًا عن أي أثر للفتاة فلم أجد. كأنها طيف عبر المكان ورحل دون آثار مادية.. حتى أنني بدأت أتساءل عما إذا كنت رأيتها حقًا.. لربما كانت ليلة البارحة وهمًا كلها.. ولربما....

ثم ما هو موضوع تلك الأضواء التي يزعم (عزت) أنه رآها؟.. من الوارد أن

يكون مخرفًا.. ولكن ما الصدفة التي تجعله يخرف في هذه الليلة بالذات؟.. إنني مرتاب بطبعي وأؤمن بأنني مصاب بنوع خاص جدًا من النحس يوقعني في شراك كل ما هو غريب.. وغير عادي.. ومرعب... لم أجد جوابًا عن أسئلتي..

وكانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة صباحًا.. أدرت قرص الهاتف طالبًا سنترال قريتي.. وبعد ربع ساعة من المحاولات الخرقاء أتاني صوت عامل الهاتف يصيح في وقاحة:

- آلوووووووه!

- أوصلني برقم (٨) وحياة والدك.. أرجو أن تسرع قبل أن ينقطع الخط.. ومرت ثوان متوترة.. ثم سمعت صوت الحاج

(دياب) يسأل عامل السنترال عما هنالك، وتداخلت الأصوات.. إلى أن استطعت أن أخبره أنني (رفعت إسماعيل)، وأنني أريد منه أن يسأل أخي (رضا) عن أية حوادث سيارات عند ترعة (كفور داود)، وأن يتصل بي هو ظهرًا لأن ذلك سيكون أكثر سهولة...

وبمجرد أن أنهيت هذه الحرب، بدأت أستعد للذهاب إلى الجامعة فقد حان ميعاد العمل....

* * *

منهكًا مضعضعًا من جراء ليلة قلقة، بدأت يومي بالمرور على (هن - تشو - كان) في العناية المركزة لأطمئن إلى أنه

لم يمت... ثم اتجهت إلى مبنى الأمراض الباطنية العتيق المتداعي.. صاعدًا في درجات السلم إلى الغرفة التي ثبتت عليها لوحة تقول (أ. د. رفعت إسماعيل).. وتحتها لوحة أصغر: (وحدة أمراض الدم)..

الحق أقول لكم إن هذه (الوحدة) لم يكن بها سوى طبيب واحد هو أنا الذي أصررت - بعد عودتي من (اسكتلندا) - على تكوينها، ولم تكن بها أجهزة سوى مجهر سوفيتي الصنع عتيق جدًا.. وبضع شرائح زجاجية وزجاجات صباغة.. وإبرتين من إبر بذل النخاع العظمي..

كنت أعشق الدم.. ليس إلى درجة شربه طبعًا لكن إلى درجة الوله.. خاصة

وأمراضه لها مذاق خاص متميز بين علوم الطب.. وأجد فيها الترابط المنطقي والتسلسل الذي تفتقر إليه بقية الفروع..

كنت أحب عملي وأفخر به..

لكني - أعترف - لا أزال أحسب نفسى هاويًا في دنيا الطب.. مجرد طفل يجمع الفراشات الجميلة والغريبة لكنه لا يجرؤ على بيعها..

بهذا المنطق لم أجد الشجاعة قط كي أفتتح عيادة خاصة.. كيف أبيع الناس خبرات أؤمن بأنها لم تكتمل بعد؟.. أي قناع سأرتديه - أنا الطفل المنبهر بكل شيء - أمام المرضى لأقنعهم بأنني العليم بكل شيء؟.. لقد اعترف أحد الأطباء العظام - لعله (ويليام أوسلر) - أنه أخطأ

في تشخيص تسعين في المائة من الحالات التي فحصها في حياته.. وقد أدرك هذا فوق منضدة التشريح! فأين أنا من (ويليام أوسلر)؟!

إن امتلاك عيادة شبيه بامتلاك زوجة.. كلاهما يحتاج إلى ثقة مفرطة بالذات.. والإيمان بأنك قد كبرت وصرت خطرًا كالآخرين..

و.... معذرة!.. هأنذا أعود للإطناب بعيدًا عن الموضوع مرة أخرى!.. سامحوني.. فنحن بشر.. وجميعنا لا يقاوم لذة الحديث عن نفسه أبدًا..

أعود للموضوع إذن.......

جلست في مكتبي أتفقد صحف الصباح بنظرة سريعة عجول.. كان هناك خبر عن

العثور على جثة المهندس الذي شوهد يسقط في النيل منذ ثلاثة أيام، لم أكن طبعًا أعرف شيئًا عن هذا الموضوع لأنني كنت غارقًا إلى أذني في مشكلة الكاهن الأخير.. والخبر على كل حال يقول إن المهندس (محمود أبو زيد) البالغ من العمر خمسين عامًا قد شوهد واقفًا مع شخص آخر فوق الجسر منذ ثلاثة أيام. رآهما أحد رجال الشرطة في الظلام الدامس (فقد حدث هذا عند منتصف الليل).. ويقول الشرطي إنه شاهد التحامًا بين الرجلين، ثم رآهما يقفزان متلاحمين في الماء.. وهو لا يفهم ما إذا كان أحدهما قد أجبر الآخر على الوثب أم أن هذا كان انتحارًا ثنائيًا فريدًا من نوعه.

الخلاصة أن رجال الإنقاذ تمكنوا من انتشال جثة المهندس - وقد تعرفه أهله - لكن ما شد انتباه الجميع كان هو وجهه.. بالطبع لا بد من أن يكون منتفخًا متقلصًا متشمعًا.. كل هذا متوقع برغم بشاعته.. الجديد في الامر - يزعمون - هو أن علامات الشيخوخة كانت قد غزت ملامحه إلى حد لا يوصف.. بل وأن شعره أبيض كالثلج وكان فاحم السواد..

خبر صغير نجحت الصحيفة - كالعادة - في تهويله محاولة جعله قضية الساعة، لكني لم أر أي شيء غريب في شيب الشعر.. فكم من ماركيزات الثورة الفرنسية ابيضت شعورهن عشية موعدهن مع المقصلة.. والساخر الأمريكي العظيم

(مارك توين) استحال شعره للون الأبيض وهو يرمق حريقًا على ظهر سفينة في الماء.. والسبب أن أخاه كان على ظهر هذه السفينة المنكودة.....!

نعم.. لا أرى شيئًا غريبًا في شيب الشعر المفاجئ.. لكني أرى كل الغرابة في سببه!.....

ما الذي رآه هذا الفقيد وأثار رعبه إلى ذلك الحد؟!..

وتنهدت........

لكم من أسرار يحوي هذا الكائن الغامض الصموت: الليل!.. حتى أنا قابلت بالأمس لغزًا.. وكان هذا اللغز يدعى (براكسا).. جاءت حين جاء الظلام ورحلت حين

رحل.. ولم تترك لي أثرًا أقنع به نفسي بأنني لم أكن اخرف....

طويت الصحيفة وأغمضت عيني وتمنيت أن أراها من جديد.. لم أكن أعرف أن أبواب السماء قد انفتحت لأمنيتي.. وللمرة المليون أقول إنني كنت ساذجًا حين تمنيت ذلك.. ففصول القصة لم تكن قد انتهت بعد..

بالأحرى كانت في بدايتها....

❋ ❋ ❋



كان هناك خبر عن العثور على جثة المهندس الذى شوهد يسقط فى النيل منذ ثلاثة أيام ..

٥ - أشتاقها!..

نعم.. الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المفزعة التي يراها واسعو الخيال..
ولكن ما دخلي أنا بكل هذا؟!..

❋ ❋ ❋

"أرجوك لا داعي لرفع الكلفة.. إن لي أسبابي الخاصة التي أرجو إعفائي من ذكرها..".

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

"(رفعت).. أنا لا أعرف ما في شقتك لكنه - حتمًا - شيء مضيء كالشمس.. أحمر باهر كستائر مصاصي الدماء.. فما هو؟!".

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

لا أدري لماذا ظلت صورتها وهي مرجعة رأسها للوراء وتطلق الدخان من

بين شفتيها المنفرجتين قليلًا، لماذا ظلت هذه الصورة تؤرقني طيلة اليوم..؟.. بل - ولا تضحك أرجوك - ضبطت نفسي وأنا أحاول أن أقلدها في التدخين بذات الطريقة!..

وسألني زميل عما إذا كنت كتبت تقريرًا عن حالة (التصلب النخاعي) التي فحصناها منذ أسبوع.. فقلت:

- تؤ!

الواقع أن الفتاة كان لها تأثير هائل في روحي..

يقول من ذاقوا النبيذ - حفظنا الله من أذاه - إن له طعمًا مرًا كريهًا تأباه النفس في المرة الأولى.. ثم لا تلبث أن تتعوده فتحبه فتحتاج إليه.. ومن ثم يأتي الإدمان..

و (براكسا) كان لها مذاق كريه منفر بالنسبة لي في اللقاء الأول.. لكني اليوم لا أجده كريهًا إلى هذا الحد..

فهل - إذا جن الليل - أجدني أحتاج إليها؟.. فأدمنها؟

❋ ❋ ❋

حين عدت لشقتي ظهرًا شعرت - للمرة الأولى - بمدى الخواء الذي أحيا فيه وبه وله...

لقد وجد الآخرون هدفًا لحيواتهم.. فمنهم من قرر أن يمضي هذه الساعات يجمع المال في عيادته، ومنهم من عاد إلى داره ليتشاجر مع امرأته ويسومها الخسف، ومنهم من وثب إلى أقرب حافلة أو عربة

(مترو) لينشل ما تيسر له من محافظ الركاب..
واحد فقط يحيا بلا هدف..
واحد فقط يصارع الملل واللا جدوى..
وهذا الواحد يدعى (رفعت إسماعيل)......
وهنا دق جرس الهاتف فهرعت أرد عليه قبل أن يقتلع أعصابي من جذورها.. تبًا لهذا الاختراع الشنيع!

- (رفعت)!.. هذا أنت؟.. أنا (رضا)...
- (رضا) من؟
- سبحان الله!.. أخوك طبعًا..

آه!.. كنت قد نسيت الأمر برمته.. فلنر ما سيقوله لي عن الحادث الذي - ولابد - تعرف (فاقوس) كلها بأمره الآن:

- لا أدري ما يعنيك في الأمر؟.. على كل حال لقد حضرت النيابة وانتشلوا الجثة..
- أية جثة؟
- جثة سائق السيارة طبعًا!
جلست على أريكة، وبيد واحدة اخرجت علبة تبغي وسحبت منها لفافة.. وتساءلت:
- لحظة يا (رضا)... هل أنت واثق من كلامك؟.. الحادث عند ترعة (كفور داود).. جوار المقابر.. سيارة (أوبل) قديمة...
-.. ونصفها مغمور تحت الماء.. لا توجد حادثتان من نفس النوع.. والسائق لم يجرح لكنه غرق لأنه لم يستطع تحرير نفسه والسباحة للشاطئ.. لا أدري ماذا يهمك في كل هذا؟..

- فضول يا (رضا).. فضول.. رأيت مسرح الحادث في أثناء عودتي من القرية أمس.....

- مستحيل يا (رفعت).. هذا غير معقـ.... ورررررررر!

حمدًا الله!..

انقطع الخط فأراحني من أسئلته الفضولية حول ما يهمني في هذا الموضوع.. أريد أن أخلو بنفسي لأحسن التفكير..

ماذا يعنيه كل هذا؟..

أولًا: يعني أن ما رأيته أمس كان حقيقيًا.. لا هلاوس في الموضوع ولا رؤى.. وهذه هي القاعدة التي سأبني فوقها استنتاجاتي..

ثانيًا: لقد كذبت (براكسا) علي حين قالت إنها وحيدة وإنها كانت تقود السيارة.. جثة

الرجل التي وجدوها خلف المقود تؤكد كذبها...
وهذ يقودنا إلى سؤال فرعي لكنه هام جدًا:
لماذا تكذب الفتاة؟
الاحتمال الأول: تكذب لأنها مصدومة عصبيًا ولا تعرف حقيقية ما تقول.. أميل إلى استبعاد هذا الاحتمال لأنه لم يحدث في أية كارثة سمعت عنها.. المفترض أن تخرج الفتاة من الماء مولولة كي ننقذ خطيبها أو زوجها أو أخاها، ومهما كانت درجة انهيارها العصبي فهي تتماسك حتى تبلغ رسالتها..
الاحتمال الثاني: تكذب لأنها لا تريد أن تسيء إلى سمعتها حين يعرف الناس أن

رجلًا كان معها.. أميل - أيضًا - إلى استبعاد هذا الاحتمال.. فـ (براكسا) من بيئة متحررة نوعًا.. وطريق (كفر بدر - فاقوس) ليس طريقًا شاعريًا يلتقي فيه العشاق خلسة، دعك من أن الأمر يحتاج إلى برود أعصاب غير بشري كي تحافظ فتاة على سمعتها مضحية بحياة إنسان ربما أمكن إنقاذه.. لا أصدق أن في الكون أنانية شريرة إلى هذا الحد..

الاحتمال الثالث: تكذب لأنها حقًا أرادت الخلاص من هذا الرجل، وقدم لها الحادث فرصة ذهبية.. ربما كان هذا الرجل شريرًا يهددها أو مبتزًا يطاردها أو زوجًا تريد الخلاص منه.. وفي جميع الأحوال كانت

تصبو إلى هلاكه.. وهذا هو ما حدث بالفعل...

الاحتمال الرابع: تكذب لأنها قتلته. وهو شبيه بالاحتمال الثالث إلى حد ما.. يمكنها أن تخدره وتدير محرك السيارة تاركة إياها تتحدر إلى الماء والرجل خلف عجلة قيادتها.. ثم تتشبث بحافة الترعة زاعمة لي أنها هي الناجية من الحادث.. و..!..

كلها احتمالات سخيفة هشة.....

فأمرها كان سيفتضح عاجلًا أو آجلًا، وهي فتاة ذكية وتعرف ذلك جيدًا.. وكيف تأكدت من أنني لن أقودها إلى أقرب قسم شرطة؟..

إن رأسي يكاد ينفجر....

مئات الأسئلة لا يملك الجواب عنها سوى (براكسا) ذاتها... دخلت إلى الحمام لأغسل وجهي بالماء البارد، ثم فتحت الصيدلية الصغيرة المعلقة جوار المرأة لأخذ قرص (أسبرين).. وهنا لاحظت شيئًا غريبًا....

كانت زجاجة (الميركيروكروم) مفتوحة وقد تبخر أكثرها تاركًا جزءًا أكثر تركيزًا من الصبغة.. هذا هو الأثر الوحيد الذي تركته لي، أما الأثر الثاني فكان أمبولًا محطمًا... الأمبول الزجاجي المعقم الذي يعبئون فيه خيط الحرير المستخدم في خياطة الجروح.. كنت أحتفظ دائمًا بواحد تحسبًا للطوارئ إذا ما شج الأستاذ (زكريا) رأسي أو شججت رأسه..

والآن أرى الأمبول محطمًا وفارغًا.. وجواره الإبرة الجراحية المعقوفة إياها ملقاة في إهمال بين فكي ماسك الإبرة.. تأملت وجهي في المرآة فرأيت علامات الذعر مرتسمة عليه.. أي نوع من الفتيات هذه؟..!..

أنا واثق من أن لهذا معنى واحدًا.. لقد كانت مجروحة في مكان ما.. ولم تخبرني.. وفتشت الشقة بعناية حتى وجدت الخيط والإبرة.. وقامت بخياطة جرحها بنفسها أمام المرأة ودون تخدير!!

إن هذا يبدو مستحيلًا.. لا يوجد مخلوق عنده قوة التحمل الكافية للقيام بذلك.. دعك من أن الفتاة لا تملك أية خبرة طبية كما هو واضح.. ليس الأمر سهلًا إلى هذا الحد..

ثم.. أين عساها جرحت؟.. أنا لم أر دمًا في أي مكان.. ولم تتألم أو تتأوه...

لكن - إذا استبعدنا هذا - ما الذي يمكن ان يفعله إنسان بخيط جراحي وإبر وماسك إبر غير خياطة الجروح؟!..

عدت من الحمام مثقلًا بالهواجس.. فارتميت بثيابي على الفراش بعد أن فتحت باب الشرفة لأظفر ببعض أنسام الهواء.. رائحة (الشانيل) مازالت لاصقة بالفراش تشي بمن نامت فيه ليلة أمس..

يجب أن.... يجب أن ماذا؟.. لقد نسيت.. إن أفكاري مختلطة تمامًا.. من الواضح أن إنهاك الأمس قد.....

* * *

وحين صحوت....

كان ضوء القمر يغمر الفراش..

وأدركت - في رعب - أنني نمت أربع ساعات متواصلة بلا أحلام.. لقد كنت راقدًا أفكر ثم - فجأة - لم أعد هنالك..

تثاءبت ونهضت متثاقلًا إلى الصالة المظلمة باحثًا عن مفتاح النور عالمًا أن هذه الغفوة سأدفع ثمنها أرقًا حتى الصباح..

وهنا دق جرس الباب فأجفلت.... ذهبت لأفتحه في توجس..

وفي ضوء السلم الخافت رأيت (برأكسا).....!

❋ ❋ ❋

٦ - لكنها عادت..

دعوني أؤكد لكم أن الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المريعة التي يراها واسعو الخيال.. لكن سعة الخيال شيء مذموم عندما تأتي (براكسا) إلى دارك ليلاً..

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

- (براكسا)!.. ماذا عاد بك إلى هنا؟

- يا له من استقبال حار!..

أشرت لها في صمت كي تدخل.. آمل ألا يكون أحد قد رآها صاعدة إلى شقتي هذه المرة أيضًا، لكني لم أجد لدي الجرأة الكافية كي أطردها من على الباب..

خطت إلى الداخل في تؤدة خطوات استكشافية منهكة، وكان صوت كعبي حذائها يدويان في الصمت هذه المرة.. ترتدي هي الآن ثوبًا أبيض ويحيط بخصرها حزام أسود عريض.. وللمرة الثانية أدرك أنها فاتنة.. فاتنة إلى حد لا يصدق..

أغلقت باب الشقة وأشرت إلى الأريكة كي تجلس عليها.. لحسن الحظ أنني لا أزال مرتديًا ثيابي.. شعور عجيب أن ترى

امرأة في هذه الشقة التي اتخذت طابعًا ذكوريًا لا يتغير..



أغلقتْ باب الشقة وأشرتْ إلى الأريكة كي تجلس عليها ..

أشعلت لفافة تبغ وجلست أمامها أنتظر رد فعلها الأول..

- لا تبدو سعيدًا برؤيتي..

- أولًا: أنت تعرفين الظروف عندي.. ثانيًا: أنت رحلت في الصباح دون تعليق ولا كلمة وداع ولا تفسير.. وهذا تصرف غير مبرر.. وغير مهذب إذا سمحت لي بالتعبير.. ثالثًا: إن أسئلة عديدة تزدحم على لساني فلا تدع لي الفرصة لأتظاهر بالسعادة.

انحنت إلى الأمام لتجذب لفافة تبغ من علبتي.. ودون أن تنتظر رد فعلي أشعلتها.. وعادت تسترخي على الأريكة واضعة ساقًا على ساق:

- ففف!.. لنبدأ بالجزء الثالث من خواطرك.. أية أسئلة تفكر فيها؟

- السؤال الأول هو لماذا رحلت دون ضوضاء صباحًا؟

- لأنني كنت أريد الانصراف قبل أن يصحو الناس، وكنت أنت غير موجود فلا يمكنني أن أخبرك..

- ثانيًا: لماذا لم تغسلي وجهك أو تأكلي؟.. وكيف خرجت حافية القدمين إلى الشارع؟.

- لم آكل لأنني لم أرغب في ذلك.. غسلت وجهي بالماء واكتفيت.. أما عن الخروج حافية القدمين....

ومدت يدها إلى حقيبة يدها الصغيرة مخرجة شيئًا لفته في ورقة جريدة.. وناولته لي مستطردة:

-.. فقد استعرت خفك من تحت الفراش، وهأنذا أعيده لك شاكرة..

آه... أنا لم استعمل خفي قط فلم ألحظ اختفاءه.. نظرت في عيني نظرة متحدية لاشك فيها.. وتساءلت:

- أية أسئلة أخرى؟

- نعم.. لماذا عدتِ؟

- طبعًا لأعيد لك الخف.. وهذه..

ووضعت على المائدة الصغيرة أمامها ورقة من ذات الخمسة جنيهات، وأضافت باسمة:

- كنت بحاجة إلى المال.. ووجدت هذه في درج الكومودينو.. قلت لنفسي إنك لن تمانع إذا ما اقترضتها..

- وماذا فعلت طيلة النهار..؟

هزت رأسها في لا مبالاة.. وغمغمت وهي تطفي لفافة تبغها:

- مرة أخرى تعود للفضول غير الحميد.. كنت أعيش حياتي الخاصة وكفى.. هل انتهت أسئلتك؟

- لا.. ليس بعد...

ونهضت إلى المطبخ فعدت بزجاجة مياه غازية.. وشرعت أعد قدحًا من القهوة المركزة لي.. ثم عدت لها وصببت لها السائل الفائر في كأس كبيرة.. وجلست أمامها أرشف القهوة..

كانت الحادية عشرة مساء.. وإضاءة الشقة الخافتة تضفي على المكان كله تأثيرًا شبيهًا بالأحلام.. ومن الغريب أنني - حتى هذه اللحظة - لم أكن قادرًا على تذكر وجه

الفتاة..، فقط حين ألقاها أعرف أنها هي..
أما حين أبتعد عنها يصير تذكر وجهها مستحيلًا.. وكلما حاولت ذلك استعدت وجه إحدى قريباتي..

إن وجه (براكسا) لشبيه بالبحر.. لديك فكرة عامة عنه لكنك غير قادر على وصف كل موجة فيه مهما حاولت....

قلت لها وأنا أمد ساقي:

- هل أبلغت الشرطة أو أهلك؟.. ماذا تم بخصوص السيارة؟

- هذا ليس شأنك.. ولا تعتبر ردى هذا إهانة...

- لا أعرف حقًا أي شيء تخفين..

- إن غموض المرأة هو سرها المقدس..

بعد دقائق من التفكير قررت أن أسألها في حذر (إنه الدافع الخفي الذي يحرك تصرفاتي كثيرًا):

- هل أنت واثقة من أنك لم تجرحي في الحادث؟

- تؤ!..

- ولم تحتاجي لخياطة جروحك بالتأكيد؟

جرعت جرعة من زجاجة المياه الغازية.. ثم توقفت وتساءلت في شك:

- لا أدري ما ترمي إليه.. ولكن.. آه... أنت تتحدث عن الخيط الأسود الذي كان في صيدلية الحمام؟.. لقد كان ثوبي ممزقًا واحتجت إلى أن أخيطه فلم أجد لديك أية خامات تطريز.. اضطررت إلى استعمال

هذا الخيط السميك.. وكانت معه إبرة معقوفة غريبة الشكل لكنها صالحة...

- وخطت الثوب بماسك الإبرة؟!

- من الصعب إمساك هذه الإبرة بالأصابع.. قل لي: أظن أنها إبرة تستخدم في الجراحات.. أليس كذلك؟

ولم أرد...

إنها تكذب.. أنا واثق من أنها تكذب.. ولكن لماذا؟... ولأي غرض؟.. برغم أنها صارت أكثر مرونة وأقل تعجرفًا إلا أن ارتياحي لها قد قل كثيرًا.. ثمة شيء لا يريح في كل هذا.. وإنني لأسائل نفسي عن الحقيقة.. لن أصارحها بما قاله لي (رضا) ظهر اليوم.. أو سأؤجل ذلك بعض الوقت..

كل ما ستقدمه لي هو أكذوبة جديدة.. وأنا سئمت الأكاذيب.. بعد هنيهة قالت (براكسا) وهي تضع الزجاجة:

- حدثني عن نفسك أكثر.. ولتنس قليلًا دور المحقق البوليسي..

- ماذا تريدين معرفته؟.. أنا (رفعت إسماعيل) أستاذ أمراض الدم بكلية طب (...).. في الأربعينيات من العمر.. غير متزوج.. مدخن من النوع الثقيل.. هل يوجد ما يقال أكثر؟

وشرعت تستجوبني عن حياتي ونفسي استجوابًا ناعمًا رقيقًا، فأجبتها بدقة وصراحة عن كل ما أرادت.. ولم أمنع نفسي من استشعار لذة خفية في أن هناك من يعبأ بي إلى هذا الحد المروع..

- ألن تتصرفي؟!
- بلى.. ولكن أمهلني بعض الوقت..
- هو منتصف الليل.. أي أن....
- أنت أذكى - أو المفترض أنك أذكى - من أن تخضع نفسك لقوانين استنها المجتمع للرجل التقليدي.. أنا لا أرتكب خطأ وأنت لا ترتكب خطأ.. الخطأ إذن هو في ذهن أولئك الذين يملئون الطرقات ولا يضيفون شيئًا للحياة سوى مزيد من سوء الظن..

تبًا لهاته الفتيات الوجوديات المثقفات!.. لا تكاد تقول الواحدة منهن (صباح الخير) حتى تصدع رأسك بوجوب التمرد على النمطية وأهمية أن نكون نحن لا هم.. إلى آخر هذا الملل...

ثم إنها بدأت تحدثني عن نفسها وكان حديثها عذبًا محببًا للنفس والأذن.. قالت إنها تدرس الأدب الإنجليزي في كلية آداب (...)، وإن أباها - رحمه الله - طبيب أسنان سافر إلى (اليونان) أغلب سني عمره حيث قابل أمها وتزوجا.. وقالت إنها اعتادت المجيء إلى (كفور داود) لتزور قبر أبيها كلما عادت ذكراه السنوية.. لكنها لم تخبرني بعنوانها قط.. ولم تفسر لي غرابة أطوارها الواضحة..

كانت الجلسة قد طالت.. وكنت مستمتعًا كقط يقعي جوار مدفأة.. حديثها العذب، وشبح الوحدة الذي بدأ يتأفف ويغادر عالمي.. والإضاءة الخافتة التي جعلت من كل هذا حلمًا جميلًا.. لكنه حلم لابد وأن

ينتهي.. ليس منطقيًا أن تظل حتى الواحدة صباحًا في شقتي - أنا الأعزب الشقي - بدعوى الصداقة أو التحرر الفكري..

وهنا.. قامت بآخر شيء توقعته..

انتهزت إحدى لحظات الصمت وطوحت بحذاءيها جانبًا.. ثم ثنت قدميها تحتها وتكورت - كقطة صغيرة - على نفسها، وكفت عن الكلام..

- آنسة (براكسا)!.. حان وقت الرحيل..

-.............!

- اسمعيني.. لا مجال للمزاح هنا....

-.............!

دنوت منها وهززت كتفها بحذر.. كانت غافية حقيقة لا تصنعًا.. لابد وأنها بعد منهكة من أثر ليلة البارحة وإلا لما نامت

بهذه البساطة، هززتها بمزيد من الشدة فأصدرت صوتًا متململًا وعقدت يديها على صدرها.. وغيرت وضعها إلى وضع أكثر استرخاء على الأريكة!...

عليك اللعنة!.. يا له من موقف..!.. كيف أنجح في ايقاظك إذن؟.. إن صب الماء البارد فوق رأسك فكرة لا بأس بها لكني لست فظًا إلى هذا الحد خاصة مع النساء.. ليس أمامي سوى تركك ودخول غرفة نومي.. ولكن لا.. إن فلاح (الشرقية) المتحفظ الراقد في أعماق روحي لا يستطيع ذلك.. لا يستطيع سوى أن........

وهكذا دققت جرس (عزت) في إصرار للمرة الثانية!..

سمعت صوت سبابه وهو قادم من الداخل.. فما إن فتح الباب ورآني حتى تقلص وجهه ذهولًا:

- (رفعت)!.. هل جننت؟.. ثاني ليلة تدق فيها بابي بعد منتصف الليل!.. لابد وأن هذه مزحة ثقيلة منك..!

- دعني أدخل يا (عزت) أولًا ثم نتكلم..

قلتها وأنا أدخل شقته.. هذه المرة كنت أحمل منامتي وفرشاة أسناني ومشط شعري.. بل ومطفأة سجائري..

- إذن أنت تنوي المبيت عندي؟

- هذا واضح!

صاح في حنق وهو يجذب ذراعي لأنظر في وجهه:

- لقد حان الوقت لتفسر لي: لماذا تهرب من شقتك؟!

- سأحكي لك كل شيء...

وحكيت له القصة كاملة هذه المرة....

❋ ❋ ❋



جلست في الصالة شارد الذهن أتأمل (براكسا) حيث رقدت على
الأريكة وقد عقدت يديها على صدرها وثنت ساقيها تحت جذعها

قال (عزت) بعد أن فرعت من الكلام:

- هذه الأشياء لا تحدث إلا لك يا أخ (رفعت).. ولو أردت رأيي فأنا أعتقد أن الفتاة مخبولة تمامًا.. وليس من الحكمة أن تتركها في دارك وحدها لتفعل ما تريد........

- والحل في رأيك؟

- أن تطردها حالًا..

- لا يطاوعني قلبي على ذلك.. إنني (جنتلمان) كما تعلم..

- إذن أفعل هذا عنك.. اسمع.. سندخل معًا إلى شقتك وأوقظها أنا.. قل لها إنني شريكك في المسكن وإنني غاضب وإنني أسأت الفهم.. وسأوجه أنا لها عبارات سمجة تجعلها تتصرف حانقة..

- وأين تذهب هي في ساعة كهذه؟
- هي مشكلتها.. ما كان يجب أن تظل عندك كل هذا الوقت...
لم أدر حقًا ما أقول.. كلامه منطقي.. وهذا الذي يجري خطأ وينبغي أن ينتهي.. ثم إنني لن أطرد من شقتي كل ليلة.. ينبغي قطع قدمي هذه الفتاة اذا صح التعبير..
خرجت معه من شقته مبلبل الفكر قاصدين شقتي عبر الردهة المظلمة أعلى الدرج.. ومددت يدي لجيبي أخرج المفاتيح..
وهنا سمعته يمسك بيدي بعصبية حتى كاد يهشمها.. كان يريد أن أرى شيئًا أثار انتباهه.. وسمعته يقول:
- هوذا.. لست مجنونًا والحمد لله!

نظرت إلى حيث أشار.. وتصلبت....
ما سر هذا الضوء الأحمر الخارج من أسفل بابي؟!....

❋ ❋ ❋

٧- وعاد الرعب..

كنت أقول إذن إن الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المرعبة التي يراها واسعو الخيال..

لكن الشيء الذي يراه اثنان يندر أن يكون خيالًا..

❋ ❋ ❋

مددت يدي بالمفتاح إلى قفل الباب، وجاهدت كي لا ترتجف أصابعي من فرط انفعالي.. وخلفي جرى (عزت) لاحقًا بي..

ولم نتبادل كلمة لكننا عرفنا - في ذات اللحظة - أننا سنرى شيئًا مروعًا..

انفتح الباب ببطء شديد.. شديد......

ومططنا عنقينا - كالسلحفاة - لنرى بحذر ما هنالك..

❋ ❋ ❋

لم يكن هناك شيء...

بالحق لم يكن هناك شيء..

اختفى الضوء الأحمر بمجرد أن لامس مفتاحي قفل الباب، وكأنني فتحت دائرة كهربية ما..

وأنرت ضوء الصالة فلم أر سوى الفتاة نائمة على الأريكة كالملائكة وكما تركتها منذ دقائق..

ما معنى هذا؟..
نظرت إلى (عزت) ونظر هو لي نظرة خاوية معناها عدم الفهم لشيء..

❋ ❋ ❋

"مرة أخرى تعود للفضول غير الحميد.. كنت أعيش وكفى..".

❋ ❋ ❋

نظر (عزت) إلى الفتاة النائمة في ضوء الصالة الخافت..
- هل هذه هي؟.. إنها جميلة حقًا..
- لكنك لست الأمير الذي تنتظره هي كي تفيق..

أشار لي من طرف خفي كي أمضى معه إلى المطبخ..

وهناك أضاء النور النيون الخافت.. وذهب إلى الحوض فغسل وجهه بشيء من الماء.. ثم شرب جرعة في كفه.. وقال هامسًا:

- ما رأيك؟.

- لا رأي لي..

- أنت رأيت الضوء الأحمر مثلي.. لم تكن هلوسة جماعية.. إن هذه الفتاة تخفي سرًا يعلمه الله وحده.. أو هي تداعبنا مداعبة عملية قاسية..

أشعلت لفافة تبغ واستندت إلى الموقد مفكرًا..

- والحل؟

- اقترح ألا تغادر الشقة.. بت ليلتك هنا لتعرف ما يحدث بالضبط.. وسأكون أنا في شقتي بانتظار ندائك لي.. إلا إذا أردت أن أبيت أنا الآخر معك..

قالها وفتح علبة أحفظ فيها الملح، ومضى يزدرد بعض الحبيبات البيضاء التي وضعها في كفه.. أرجو ألا ينسى القارئ المرض المزمن الذي يعانيه (عزت) ويجعله يشتهي (الصوديوم) باستمرار.. لابد أن ضغطه بدأ ينخفض بعد الانفعالات الأخيرة..

وقلت وأنا أدفن لفافة التبغ في الحوض محدثًا ذلك الصوت الفائر القصير:

- عُد أنت إلى شقتك ولا تقلق.. سأبيت في حجرتي..

هز رأسه وتمنى لي ليلة طيبة ثم غادر الصالة، ملقيًا نظرة أخيرة على الجسد المسترخي هناك.. ثم فتح باب الشقة وخرج..

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

جلست في الصالة شارد الذهن أتأمل (براكسا) حيث رقدت على الأريكة وقد عقدت يديها على صدرها وثنت ساقيها تحت جذعها والتوى عنقها إلى اليسار.. الإضاءة خافتة شاحبة كإضاءة قطارات

الدرجة الثالثة (إذا احتفظ أحدها بأضوائه) بسبب المصباح البائس المتخاذل الذي أضيئه ليلًا لأعرف مكان الحمام....

إنها أول فرصة تتاح لي كي أتأمل ملامحها بعناية ودقة دون أن أصطدم بعينيها المقتحمتين....

دنوت منها ببطء راكعًا على ركبتي ودققت النظر أكثر.. كان أنفها الأقني ينحدر من جبين مفعم بالكبرياء إلى شفة عليا رقيقة يعلوها ذلك الأخدود الذي يسميه علم التشريح (النثرة).. وكانت تجعيدتان قاسيتان تحيطان بالفم من الجانبين توحيان بأنها اعتادت التحدي وإشعار الآخرين بسماجتهم....

وفي أذنيها كان قرطان من اللؤلؤ - لابد أنه حقيقي - يتدليان في إهمال نحو عنقها و.....

إنني الآن أرى عنقها بوضوح تام وقد انزاح عنه ستار شعرها الأسود الفاحم..

ما هذا الذي أراه؟!..

إن هذا الجرح.. جرح غليظ بشع المنظر يمتد بطول عنقها من زاوية الفك حتى الترقوة....

جرح مزق الأنسجة على جانبيه شر ممزق.. جرح عميق كما هو واضح.. بل - وأنا واثق من هذا - مزق الشريان السباتي والوريد الودجي.. وهما الوعاءان الأساسيان في العنق المسئولان عن الذبح..!

كيف استطاعت هذه الفتاة أن تعيش بجرح كهذا؟...

إذن فحادث العربة لم يكن دون إصابات...

ولكن كيف لم تمت؟.. بل - على الأقل - كيف لم تنزف؟!...

أما أسوأ ما في الأمر فهو الخيوط السوداء التي تحيط بحافة الجرح في محاولة بدائية لغلقه!.. محاولة لتقليل بشاعته وحجمه لا لغلقه إذا أردنا الدقة....

هذه الخيوط مألوفة لدي.. خيوط مأخوذة من صيدلية داري.. واستخدمت بيد غير خبيرة لخياطة هذا الجرح الذي لم أر مثله في عنق مخلوق حي....!...

إذن كانت الفتاة كاذبة..

هي التي أخذت الخيط ووقفت أمام مرآة الحمام تحاول استعماله على نفسها، عالمة أن انسدال شعرها لن يبقي السر خافيًا لفترة طويلة!!..

من هي هذه الفتاة؟.. ومن أين جاءت حقًا؟!..

وهنا رفعت عيني إلى وجهها..

فوجدت عينيها مفتوحتين تحملقان في وجهي....!

❋ ❋ ❋

إن أشد ما يثير رعبي لهو الجهل بالخطر.. وفي كل قصصي أردد عبارتي الخالدة: (لم أكن أعرف ذلك.. لأني كنت ساذجًا.. ساذجًا).. تخيلوا لحظة دخول

(ذات الرداء الأحمر) لجدتها التي لا تعرف أنها ذئب متنكر.. كلنا نعرف ذلك لكنها لا تعرف، ونكاد نصرخ: اهربي.. اهربي! لكنها – بالطبع - لا تسمعنا..

(جوناثان هاركر) يزور قصر (دراكيولا) وهو الوحيد الذي لا يعرف من هو (دراكيولا).. رائحة الكبريت انبعثت من (كاترين) في القبو المظلم لكني لم أربط بين ذلك وبين مصاصي الدماء..

وفجأة تلتمع الحقيقة كضوء شهاب...

ويدرك بطل القصة - بعد فوات الأوان - أنه في مأزق حقيقي..

عندئذ تولد ذروة القصة..

(من الكتيب العاشر - حلقة الرعب)

* * *

- د. (رفعت)!.. هل تريد شيئًا؟

سألتني بصوت ناعس لم يعد بعد من عالم الأحلام.. وقبل أن أرد عليها ابتلعت ريقها بصوت مسموع مرتين.. ثم توسدت ذراعها على مسند الأريكة وواصلت النوم....

- لا.. لا شيء يا (براكسا).. واصلي.. واصلي نومك..

قلتها للاأحد في الواقع.. قلتها لنفسي...

وبدأت أتراجع - على ركبتي - إلى أن عدت إلى موضعي الأول.. ورفعت جسدي بصعوبة إلى الأريكة وأشعلت لفافة تبغ..

ومضيت أتأمل ألسنة الدخان الأبيض وأقيم موقفي عليه..
بصعوبة أقاوم رغبتي الجامحة في أن أصرخ وأفر من الشقة.. إن هذا لا يليق بي.. إنني منطقي رزين وسأظل كذلك..
وتأملت الفتاة في اهتمام مذعور..
لا تبدو لي مريعة إلى هذا الحد.. مجرد فتاة حسناء أخرى غافية كمومياء (أمنمحات) أو دب قطبي في (فبراير) كما يقول (عزت).. لكن الحقائق تقول إنها شيء آخر.. شيء لا أفهم كنهه.. في الصباح سأطلب منها ألا تعود أبدًا..
فأنا لا أرغب في إيقاظها حاليًا.. بل ولا أجرؤ حتى على لمسها.. نعم.. سأكون

حازمًا للمرة الأولى في حياتي.. ولكن في الصباح..

*　*　*

قررت أن أمضى بقية الليلة عند (عزت)... يجب على هذا البائس أن يتحملني.. فأن تكون جارًا لـ (رفعت إسماعيل) معناه أن تتحمل كارثة كل صباح ومصيبة كل مساء.. وأن تتعلم ألا تشكو...

هذا ذنبه لا ذنبي إذن.....

وأنا لن أبيت مرة أخرى مع هذا الشيء مهما حدث.. نهضت لأنصرف حين لفتت نظري المرأة المعلقة في ركن الصالة..

(كلا!.. لن أقول لكم إن صورة الفتاة لم

تنعكس فيها فلا تتوقعوا ذلك!.. لقد ابتعدنا كثيرًا عن د. (كامنجز) ومومياء مصاصي الدماء.. ولن يخلو التكرار من الاملال لو عدت لذات النغمة).. إن ما خطر لي حين رأيت المرأة هو فكرة....

هذه المرأة - إذا ما وقفت عند النافذة - تظهر منظورًا عامًا للصالة بكل تفاصيلها.. فلو أننا فتحنا النافذة.. وثبتنا على خصاصها مرآة صغيرة باستعمال دبابيس الضغط، ثم غيرنا وضع شيش النافذة ليتوازى مع مرآة الصالة....

عندئذ يكون من الممكن لمن يقف عند (عزت) في الشرفة أن يرى مرآة النافذة وقد عكست صورة واضحة لمرآة الصالة،

وهذه الأخيرة تريني كل ما يحدث في الصالة عندي.. هل تفهم هذه التقنية؟..

إنها تشبه إلى حد ما أسلوب منظار الغواصة (البيروسكوب) الذي يكشف لها كل ما يدور فوق سطح الماء بينما الغواصة في الأعماق..

وفي سرعة أحضرت مرآة الحلاقة وثبتها على خصاص الشيش.. وفتحت الشيش إلى الوضع المطلوب.. وزيادة في الحرص ربطته بخيط رميت طرفه في شرفة (عزت) ليسهل على التحكم في زاويته من هناك.....

ثم زدت إضاءة الصالة لتكون الرؤية أفضل...

لم تكن الفتاة قد حركت ساكنًا....

لهذا سرت في خفة إلى باب الشقة وأغلقته خلفي....

❋ ❋ ❋

٨- لكنها بريئة..

تعرفون أن الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المخيفة التي يراها واسعو الخيال....

ولقد كانت الليلة مقمرة.. وخيالي متسع كالمحيط.. لهذا لم أكن قادرًا على التغاضي عن شيء...

❋ ❋ ❋

في هذه المرة لم يشد (عزت) شعره.. بل فتح لي الباب في استسلام أثار شفقتي..

- لم تستطع أن تحتمل.. هه؟

- بالفعل..

ولم أصارحه باكتشافي الصغير حول عنق الفتاة.. لا جدوى من الشرح فهو لن يفهم شيئًا على كل حال..

إلا أنني تركته واتجهت إلى الشرفة، فعالجت المزلاج لأفتحه ودخلت وهو خلفي غير فاهم لشيء.. وجذبت الخيط المثبت في شيش نافذتي حتى استطعت أن أرى في المرآة صورة لا بأس بها لصالة شقتي، وكومة بيضاء مبهمة على الأريكة هي الفتاة....

سألني في غباء هارشًا رأسه:

- ماذا تفعل بالضبط؟.. لم أتصور أنك مراهق إلى هذا الحد برغم صلع

رأسك..!.. تريد اختلاس النظر إلى الفتاة بهذا الأسلوب المعقد؟!

- إن اسمي هو (رفعت إسماعيل) لا (توم البصاص) كما يقول الإنجليز.. وغرضي علمي تمامًا..

وضعت يدي على كتفه شارحًا:

- هذا تقليد بدائي لدوائر التليفزيون المغلقة.. هكذا يمكننا أن نرى كل ما يحدث في الشقة بينما نحن هنا آمنان.. وعندما ينبعث الضوء الأحمر مرة أخرى سيكون عندنا التفسير بدلًا من أن نركض إلى الشقة فلا نجده..

- فهمت..!..

وأحضر مقعدين إلى الشرفة المظلمة إلا من ضوء القمر.. أنسام الليل الرحيمة

تداعب وجهينا في رفق.. المباني المجاورة مدثرة بالظلام والصمت كأشباح تنتظر رد فعلنا....

- أعتقد أن الأمر يحتاج لكوبي شاي.. ولكن....

قالها وضم إصبعيه الإبهام والسبابة علامة الاستحسان.. وأردف:

- ليكن شايًا حقيقيًا...!

نهضت معه إلى المطبخ لأشرب.. على حين تناول برادًا قديمًا متسخًا وقلبه ليفرغه.. كاد يغشى علي حين رأيت صرصورًا أسود فاخر الشكل يثب من البراد محركًا شاربيه في جشع!، لكن (عزت) أطلق سبة وواصل ملء البراد من صنبور المياه....!

لا يزال واحدًا من سادة (العك) وقادته كما عرفته دائمًا.. وحين انتهى الشاي المريع صبه في كوبين ملوثين بالشحوم، ودعاني كي أعود إلى الشرفة لنتجرع هذا الشيء الكريه ونواصل المراقبة..

وعدنا إلى مقاعدنا.. وشرع يثرثر عن تماثيله ومستقبل أعماله، وعن مراسلاته مع (كندا) التي طلبت عرض بعض تماثيله هناك.. لابد أن الكنديين قد جنوا أو عندهم أزمة في خامات البناء.. وبينما هو لا يتوقف نظرت بطرف عيني إلى المرآة....

أصابني الذهول....

لقد اختفت الكومة البيضاء من على الأريكة!

* * *

"تؤ!".

* * *

- (عزت)!.. لقد رحلت الفتاة!
نظر للمرآة في حيرة ووضع كوب الشاي على سور الشرفة:
- فعلًا.. لربما هي في دورة المياه.. إن هذا حقها كما تعلم..
- تعال ندخل الشقة ونر ما هنالك..
وهرعنا إلى شقتي، وفتحت الباب.... وفي الداخل.. كانت الصالة خاوية - كما رأيتها بالضبط - ولا أحد في حجرة النوم ولا المطبخ ولا الحمام ولا....

لقد طار العصفور دون سابق إنذار بينما نحن نعد الشاي بالصراصير في مطبخ (عزت)....

- ولكن كيف أفاقت؟.. لقد كانت نائمة مثل....

- مثل مومياء (أمنمحات).. لابد أنها تسير في أثناء نومها..

- وكيف أغلقت الباب ونزلت السلم بهذه البساطة؟

- أنت لا تعرفها.. إن حركتها رشيقة للغاية..

وهنا أشار (عزت) إلى شيء ملقى على الأرض جوار الأريكة.. تبينت على الفور أنه ملاءة بيضاء من غرفة نومي.. وفهمت ما حدث...

كانت الشيطانة تراقبني خلسة وعرفت ما أنتويه بالمرآتين.. لهذا - ما إن خرجت من الشقة - حتى هرعت إلى غرفة النوم واحضرت ملاءة كومتها على الأريكة لتعطي انطباع جسدها النائم.. ومع المسافة والظلام وتشويه المرئيات كان الانطباع كاملًا...

لماذا فعلت ذلك؟..

لأنها كانت تعرف أنني سأراقبها، وسأحاول منعها من الخروج.. وكان عليها أن تلهيني بهذه الملاءة حتى ترحل هي في سلام.. ولم يكن ثمة داع كبير لهذه الخديعة لأنني بالفعل لم أكن مراقبًا يقظًا وأضعت دقائق ثمينة في المطبخ مع (عزت).....

والآن - للمرة الثانية - رحلت (براكسا) دون أن أعرف.. ومن الصعب أن أعرف كيفية عودتها لدارها في هذه الساعة من الليل.. لكنني لن أبكي حزنًا على فراقها.. بالتأكيد لن أفعل..

* * *

وحين رحل (عزت) أخيرًا، دخلت غرفة نومي - بعد ما أحكمت غلق الباب - لأنعم بنوم هادئ لم أذقه منذ.. منذ يومين..

وجدت ورقة موضوعة جوار الفراش تحت قاعدة الأباجورة.. فلابد أن الفتاة كتبتها قبل أن ترحل.. وجوارها كانت جريدة الأمس.

أضأت الأباجورة وخلعت حذائي ورقدت على ظهري أقرأ الخطاب..

"عزيزي د. رفعت".

كان الخط منمقًا أنيقًا.. خط فتاة دون شك...

اضطررت للمرة الثانية أن أفر من دارك بنفس الأسلوب الذي لا يدل على اللياقة. لكنني أردت أن تنتهي هذه المزحة قبل أن تؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.
في الواقع أنا مدينة لك بالاعتذار عن دعابة طالت كثيرًا. لقد كنت أنت موضوع رهان بيني ومجموعة من أترابي بعضهن طالبات طب ممن تدرس لهن أمراض الدم

(ولن أذكر أسماءهن أبدًا). كانت صديقاتي تتحدثن حول أي إنسان غريب الأطوار أنت. لم تتزوج ولم تفتتح عيادة وتقضي حياتك في دائرة لا تنتهي من قصص الرعب وعوالم ما وراء الطبيعة. ويومها قلت لهن إنني لو قابلتك لجعلتك تعيش في لغز حقيقي يغير مجرى حياتك للأبد.

أنت تعرف هؤلاء الفتيات المدللات اللواتي يعانين الفراغ والملل ويفرطن في التسلية على حساب الغير. وكنت للأسف واحدة منهن. وقد راهنني على أن أقوم بما وعدت به فقبلت الرهان. لكنني كنت عاجزة عن العثور على نقطة البدء.

وتصادف أن كانت إحداهن يملك أهلها عزبة جوار قرية (كفور داود) وتعرف

أنك من قرية (كفر بدر) المجاورة. لهذا قررنا أن الرؤية المرعبة التي ستواجهك ستحدث حتمًا عند مقابر (كفور داود). سيكون هذا هو المكان الذي ستقابل فيه (براكسا) حسناء المقبرة.

وكنا نعرف أنك ستعود ليلًا، وكان من حسن طالعنا أن سيارة قد انقلبت في الترعة قبل يوم لكن أحدًا لم يحاول انتشالها.

وهيأنا المسرح واختبأت أنا جوار ضفة الترعة. وكنا نعلم أنك ستتوقف لترى الحادث عن كثب. وأنت تعرف الباقي.

حين تركتني وحيدة في شقتك كانت الفرصة مهيأة لي بالكامل كي أعبث هنا وهناك، وقمت عدة مرات بإضاءة مصباح

أحمر أحمله معي لأعطيك انطباعًا أن ضوءًا غامضًا ينبعث من الشقة. ثم غادرتها عند الفجر.

وهذه الليلة عدت أعابثك من جديد حاملة ذات الكشاف الأحمر، مع ماكياج متقن لجرح نافذ في عنقي. أردت - وأردن - أن نقنعك بأنك ترى حادثًا خارقًا للطبيعة.

إلا أنني لم أستطع التمادي أكثر.. فأنت كنت مهذبًا رقيقًا معي لهذا غادرت شقتك تاركة لك هذا الاعتذار، عالمة أن عالمًا حكيمًا مثلك يغفر الزلات البشرية ويتسامح معها.

لكنني لست جبانة يا د. (رفعت). وأعرف كيف أواجه أخطائي لهذا سأعود لك غدًا

كي تؤكد لي بنفسك أنك لم تعد غاضبًا علي. و (صاف يا لبن).
ومن يدري؟.. ربما كسبت صداقة دائمة من إنسانة وجدت فيك ما لم تجده في شباب اليوم..
المخلصة: (براكسا نجيب)

* * *

انهيت الخطاب في حنق وارجعت رأسي للوراء.. فاصطدم بحافة الفراش الخشبية.. لكني لم أستشعر ألمًا.... إذن قد عبثت بي هذه المستهترة أنا الحمار العجوز الذي لم يستطع أن يجعل تلميذاته يحترمنه...!
تذكرت - على الفور - فيلما نسيت اسمه لـ (عبد الحليم حافظ) حين كان يلعب دور

أستاذ موسيقا شيخ، وعبثت به فتاتان مدللتان تراهنتا على الفوز بحبه.. وقيمة الرهان زجاجة مياه غازية..!

هذا الموقف شبيه بما حدث لي..

هذه الفتاة تلاعبت بشهامتي وأعصابي وجعلتني أبيت ليلتين خارج دارى للاشيء... مجرد لذة العبث..

ما أقسى النفس البشرية اللوامة!

ولا أدري متى نمت كمدًا.. لكني نمت على كل حال.... لقد أخذت الفتاة الرعب وتركت لي الغيظ.. وكلاهما شعور يتناقض والنوم.. لكني نمت....

❋ ❋ ❋



أنهيت الخطاب فى حنق وأرجعت رأسى للوراء .. فاصطدم بحافة الفراش الخشبية ..

"تؤ!".

* * *

في الصباح جلست على مائدة الإفطار أتصفح صحف اليوم التي يضعها الصبي على عتبة بابي (وغالبًا ما ينسي ذلك).. وكالعادة لم أجد متسعًا من الوقت لمطالعتها، فطويتها على أن أقرأها بعناية في مكتبي بالكلية...

ثم إنني عدت أتأمل خطاب الفتاة المنكودة.. وهنا خطر لي خاطر غريب...

أحضرت ورقة وقلمًا وشرعت أنقل خطابها بالحرف إلى الورقة بأسرع ما استطعت..

فما إن انتهيت حتى نظرت لساعتي.. لقد استغرق ذلك تسع دقائق أو أكثر قليلًا.... إن معنى هذا هام جدًا..

هام أكثر مما تصورت أنت...

❋ ❋ ❋

٩ - لكنني أرتاب..

الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء الرهيبة التي يراها واسعو الخيال....

لكن شمس النهار كانت تبدد كل خيال....

* * *

متى دخلت مع (عزت) تاركين الشرفة؟

كان ذلك حين دعاني لاحتساء الشاي بالصراصير..

كم من الوقت يستغرقه غليان الماء في البراد.. صب الشاي.. العودة إلى

الشرفة؟..

ثلاث دقائق.. أو أربعًا على أكثر تقدير... هذه هي الفترة الوحيدة التي يمكن أن تكتب الفتاة خطابها فيها.. لأنها تكتبه على أساس أنني رأيت جرح عنقها.. فكيف تجد الوقت الكافي لتنهض.. تضع ملاءة بيضاء مكانها.. تكتب الخطاب بعد أن تخرج قلمًا وورقة.. تضعه تحت الأباجورة.. تلقي بالملاءة.. تفتح باب الشقة.. تخرج؟!..

إن النظام يعطى للوقت بركة لكن ليس إلى هذا الحد...

أنا نفسي حاولت كتابة الخطاب ذاته ووجدت أن أسرع كاتبة اختزال في الكون لن تتم كتابته قبل تسع دقائق...!

إذن من المستحيل أن تكون الفتاة قد كتبت الخطاب في الوقت الذي غفلنا فيه عن مراقبتها... هذه نقطة...

* * *

النقطة الثانية تتعلق بمحتواه... تزعم أن الحظ خدمها بحادثة سيارة في ترعة (كفور داود) استغلتها ببراعة.. لا أظن أن قوانين الصدفة سخيفة إلى هذا الحد... ألا ترى ذلك معي؟!....

ثم إنها فسرت لي وجود السيارة.. لكنها لم تفسر أضواءها التي ظلت تتألق تحت الماء...

كيف تظل بطاريات سيارة صالحة يومًا كاملًا وهي مغمورة تحت الماء؟.. لم تقدم

لي (براكسا) تفسيرًا لأنه لا تفسير هناك...

* * *

النقطة الثالثة تتعلق بالضوء الأحمر....

فكرة سخيفة أن تدعي أنها كانت تحمل كشافًا أحمر لتثير رعبي، فقد رأيتها أول يوم.. وكانت ممزقة الثياب حافية القدمين.. فأين أخفت الكشاف إذن؟!!..

ثم.. ما هو المبرر الذي يجعل فتاة متمدينة تمشي حافية القدمين.. وتغمر جسدها في ترعة كي تخدعني؟.. ولماذا لم تخبرها زميلاتها - مطالبات الطب - أن (السركاريا) ستخترق كل ملليمتر من جسدها لتغزوه بديدان (البلهارسيا) لعنة مجاري المياه في (مصر)؟!...

نأتي لموضوع الجرح.. لقد تقدم فن (الماكياج) كثيرًا.. لكنه يؤدي دوره فقط حين يوجد الحاجز الرابع - حاجز خشبة المسرح أو شاشة السينما - لكن لا تقل لي إن هناك (ماكياجًا) قادرًا على خداع طبيب يفحصه من على بعد ثلاثين سنتيمترًا.. مستحيل..!

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

ذهبت لعملي مبلبل الفكر مشوش العقل بخواطري.. جلست أتصفح الجرائد التي لم

أقرأها بعد، حين وجدت خبرًا صغيرًا أثار اهتمامي..
"يلقى مصرعه في الترعة - تم انتشال جثة (أحمد عبد الرحمن) - ٤٥ سنة - صيدلي من ترعة قرية (كفور داود) محافظة الشرقية بعد جهود مضنية قام بها الأهالي.
وكانت سيارة المذكور قد سقطت في الماء امس وظلت مغمورة به عدة ساعات. وقد انتقل إلى مكان الحادث كل من.............. بدفن الجثة...".
هذا هو..!
الرجل الذي كان في السيارة مع (براكسا) ولم تخبرني بأمره.. لم يبلغنا الخبر بالسبب الذي جعل هذا الصيدلي يسير بعربته في

طريق (كفر بدر - فاقوس).. فهل هو من أهل القرية؟.. لا أعرف صيادلة من (كفر بدر).. فهل هو من أبناء القرى المجاورة؟..

إن الأمر سهل.. سأتصل بـ (رضا) مرة أخرى وأسأله عن تفاصيل لم يذكرها الخبر..

وهرعت إلى (سويتش) الكلية.. أعطيت لفافة تبغ لعم (بسيوني) العجوز عامل (السويتش) طالبًا منه أن يتصل بسنترال (كفر بدر) - كابينتها على وجه الدقة - فابتسم... وبصق على سبيل التحية.. ثم شرع يمارس الجهاد المقدس: الاتصال بقريتي.

وبعد لأي.. سمعت صوت الحاج (دياب).. فأخبرته أنني (رفعت إسماعيل) وأن عليه أن يتكرم ويطلب من (رضا) أخي الاتصال بي ظهرًا..

ثم شكرت (بسيوني) فهز رأسه وبصق على سبيل قول: عفوًا.. وغمغم:

- عندي إسهال مستمر من البارحة يا دكتور.. وأردت أن....

لم أسمع باقي أعراضه لأني فررت من (السويتش) عائدًا إلى مكتبي.

* * *

حين دق جرس الهاتف المحموم الطويل في شقتي.. كنت متوترًا كالقوس فوثبت نحوه.. ورفعت السماعة:

- آلو...
- أنا (رضا) يا (رفعت).. كيف الحال؟
- على ما يرام يا (رضا).. قل لي.. هل تعرف من يدعي (أحمد عبد الرحمن).. وهو صيدلي من (كفور داود)..؟
سألته عن الرجل الذي استخرجوا جثته من الماء، وأخبرته أنه هو (أحمد) هذا.. فقال إنه غير معروف في مركز (فاقوس) كله وإنه قاهري تمامًا، كل ما يمكنه ذكره عن الحادث هو أن..
- الرجل عجوز جدًا.. شاب شعر رأسه كله وتجعد وجهه تمامًا..
- مستحيل يا (رضا).. الصحف تقول إنه في الخامسة والأربعين...

- صدقني أنا.. أنا الذي حملت جثته على يدى هاتين مع الرجال.. ولكن.. (رفعت).. لماذا تعلق كل هذه الأهمية على الموضوع؟

كنت أفكر سريعًا في مغزى كلامه...

هذا ثاني غريق أشيب أسمع عنه خلال يومين.. الأول كان في جريدة أمس.. واليوم يحدثني (رضا) عن الآخر..

هل ثمة علاقة ما بين الرجلين؟..

ما سر هذه الشيخوخة المبكرة؟...

- سؤال أخير يا (رضا)...

- وررررررررر!

انقطع الخط اللعين قبل أن أوجه سؤالي.. لا يهم..

لقد نسيته على كل حال...

* * *

كنت أحترق بفضول لا يرتوي...

فضول لمعرفة كل شيء قبل أن تعود الفتاة ليلًا.. على كل حال هي لن تجدني لأنني غير راغب في لقائها بل أخشاه كالموت....

سأمضي الليلة إذن في أي مكان.. ربما في العناية المركزة جوار الكاهن الأخير الذي لم يشف من غيبوبته بعد..

لقد خدعتني (براكسا) مرارًا...

لكنني لن أدعها تخدعني خدعتها الأخيرة إذ تزعم أن كل ما يحدث هو دعابة قامت بها فتيات مستهترات..

إن في محاولتها إقناعي بذلك لمعنى خطيرًا..

هي لا تريد أن أصغي للشكوك المتزاحمة في ذاتي..

هي تريد أن أكف عن البحث....

هي تريد أن تعود لي هذه الليلة لتقول: (صاف يا لبن)..

فلماذا؟.......

فلأبتلع قرصًا من المهدئات.. ولأواصل بحثي...

* * *

في دليل الهاتف وجدت عددًا لا بأس به من آل (أحمد عبد الرحمن) منهم صيدليان.. هل أقدم أم أحجم؟.. حتما سترد

علي أرملة منكوبة أو أخ كليم أو أم ثكلى.. ولن يقبل أحد أن يثرثر معي حول الفقيد، والسبب الذي جعله يزور (كفور داود).. في النهاية استجمعت أشلاء شجاعتي، وأدرت قرص الهاتف لأسمع صوت طفل يرفع السماعة ويهتف بحماس:

- ألوووه!.. طانط (سناء) أحضرت لي أرنبًا وبطة.. وكان جدي عندنا أمس..!

أنباء هامة جدًا!.. إن هذا الصغير يتمتع بحاسة إعلامية واضحة ولو كان مزاجي رائقًا لطلبت منه مزيدًا من التفاصيل... وهنا سمعت صوتًا رجوليا يزجره أن: كفى يا (حماده) ثم يقول لي في حزم:

- أفندم؟

- د. (أحمد عبد الرحمن) موجود؟

توقف ثانية عن الرد.. ثم سمعته يسألني في حذر:
- من يريده بالضبط؟
هذا الرجل يتذاكى علي متظاهرًا بالحرص.. وهو ذكاء مفضوح كذكاء المخبرين في الواقع.. لهذا قلت:
- أنا قريبه من (كفور داود)..!
ساد الصمت هنيهة.. ثم قال في تؤدة:
- ليس للمرحوم أقارب في (كفور داود)..
- ماذا؟.. هل مات؟!
- لا تزعم أنك لا تعرف..
ثم استحال صوته إلى صراخ غاضب يكاد يسمعه جيراني:
- كفوا عنا عليكم اللعنة!.. ألا تجدون سوانا في هذا العالم؟.. ذلك المهندس

المخبول.. ثم تلك الغانية..!.. إن الرجل قد مات بسببكم.. وكان أفضل الناس.. تلك!.. ورررررر!

وضعت السماعة محمر الأذنين كأنما صفعت على قفاي.. واضح أن هذا هو أخو (أحمد عبد الرحمن) أو أخو زوجته.. وهو حانق بسبب حشد من المتطفلين كانوا يتدخلون في حياة أخيه، أحدهم مهندس مخبول وغانية.. وأنا طبعًا....

نسيت أن أقول أيضًا إن هذا يعني أن من طلبته هو أحمد عبد الرحمن المطلوب!...

أشعلت لفافة تبغ وجلست جوار الهاتف أفكر....

لقد قدم لي الرجل بثورته كل ما أحتاج إليه من معلومات..

أولًا: هناك غانية وهي على علاقة بالفقيد.. يمكن القول دون خطأ كبير إنه يتحدث عن (براكسا).. فهي كانت مع الفقيد حين حدث الحادث....

ثانيا: هناك مهندس مخبول.. هل يمكن أن يكون هو (محمود أبو زيد)؟.. لم لا؟.. جثتان شاب شعرهما وبدت عليهما علامات الشيخوخة.. لابد أن هناك رابطًا بينهما....

وتساءلت.. من هو الآخر الذي سقط مع (محمود أبو زيد) في الماء؟.. لقد سقط (أحمد عبد الرحمن) مع (براكسا) في تلك البركة.. فهل هو نفسه من سقط مع المهندس؟..

إن الربط سهل....

(محمود أبو زيد) ثم (أحمد عبد الرحمن) ثم (براكسا).... ما معنى هذا إذن؟....

كأن هناك نوعًا من الانتقال...

شيئًا ما قتل (محمود أبو زيد) غرقًا ثم غادره إلى (أحمد عبد الرحمن) ثم قتله غرقًا وغادره إلى (براكسا)..

هل هذا ممكن؟....

إنه يفوق الخيال لكنه منطقي أكثر من اللازم.. لعل هذا يفسر الشيخوخة المفاجئة التي تهاجم هؤلاء التعساء بعد موتهم.. كأن الشيء الذي كان بهم يمتص شبابهم وحيويتهم قبل أن يغادرهم....

قد يوحي هذا بتناسخ الأرواح لكن هذا غير صحيح، لأن مبدأ التناسخ غير مقبول دينيًا..

(الهندوك) فقط يؤمنون بهذا المبدأ، ويعتقدون أن الروح تنتقل من جسد إلى جسد بوفاة الأولى.. ولربما كان الجسد الثاني جسد حيوان.. وتكفر الروح عن خطاياها في الجسد الثاني...

ويعتقدون أن هذه الدورة أبدية مقدارها ٤٣٢٠ مليون سنة وهو ما يمثل يومًا واحدًا في عمر رب أربابهم الذي يبلغ عمره مائة وخمسين يومًا.....!..

ولهذا يحرقون الجسد ويلقون عظامه في نهر الجانج المقدس - منبع (الكوليرا) الأول في العالم - ويصلون للمتوفي عشرة أيام إلى أن تستقر روحه في جسد آخر بسلام....

طبعًا كلام وثني تأباه الأديان السماوية، وغير وارد أصلًا في تفسير ما يحدث... لكنني أقبل تفسيرًا يقول إن هناك كيانًا شيطانيًا يمارس هذه اللعبة منذ فترة يعلمها الله وحده.. وهذا الكائن يحوم حولي الآن في صورة حسناء اسمها (براكسا)..!..

إلا أن الفضول لم يمنعني من البحث في مكتبي عن كتاب عن (الأديان المقارنة).. وجلست أراجع ما كتب عن التناسخ وخلافه.. فلم أزدد إلا نفورًا من الفكرة....

* * *

"تؤ!".

* * *

تررررررررررن!..
هرعت إلى الهاتف لأجيب.. فسمعت صوت (رضا) وسط آلاف الأصوات بسبب تداخل الخطوط..
- (رضا)!.. ماذ حدث؟
- لا شيء يا (رفعت).. أردت أن توجه لي سؤالًا ثم انقطع الخط فعاودت طلبك...
ابن حلال حقًا يا (رضا)!.. لقد وفرت على عناء معاودة الاتصال بالحاج (دياب) الحانق دائمًا..
- قل لي يا (رضا).. هل هناك شخص من (كفور داود) ومدفون هناك اسمه (نجيب)..؟.. طبيب أسنان سافر إلى (اليونان) وتزوج من يونانية؟.

- لا أعتقد يا (رفعت).. إن تلك البلدة لم تنجب إلا لصوصًا.. لكني سأحاول التأكد واتصل بك.. ولكن هل الأمر يهمك إلى هذا الحد..؟

- جدًا يا (رضا).. إنها مسألة نسب!

- ألف نهار أبيض!

كان هذا هو الحافز الوحيد الذي سيجعله يهتم بالأمر.. فهو لن يعبأ شعرة بقضية (براكسا) والضوء الأحمر وخلافه.. لكن موضوع النسب أمر جدير بالاهتمام...

ووضعت السماعة وشرعت أفكر في الخطوة التالية...

كان الوقت قد فر مني بين التفكير.. والقراءة.. والمكالمات الهاتفية..

بصعوبة تبينت أن الرؤية تزداد صعوبة..

وبصعوبة تبينت أن الظلام قد بدأ يسفر عن وجهه المخيف..
بصعوبة سمعت أذان المغرب من مسجد قريب...
وبصعوبة أدركت أن قرص القمر يختلس النظر من خلف المباني في الأفق.. كأنه يستوثق من أن الشمس قد رحلت حقًا... لقد حان وقت الانصراف....

* * *

وفتحت باب الشقة وكدت أغلقه خلفي.. لولا أن تبينت شيئًا يصعد درجات السلم نحوي في الغبشة.. شبحًا يرتدي فستانًا وشعر رأسه طويل.. وشممت رائحة (الشانيل)...

لقد عادت (براكسا) كما وعدت...
عادت وأنا غير مستعد للقائها.....!

❋ ❋ ❋



وفتحت باب الشقة وكدت أغلقه خلفى .. لولا أن تبينت شبحًا
يصعد فى درجات السلم نحوى فى الغبشة ..

١٠ - وكنت على حق..

الليالي المقمرة عالم رائع.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء الشنيعة التي يراها واسعو الخيال...

❋ ❋ ❋

"لهذا سأعود لك غدًا كي تؤكد لي بنفسك أنك لم تعد غاضبًا علي. و (صاف يا لبن).."

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

في هذه المرة لم أكن على استعداد للعب أدوار مهذبة.. لا وقت لدي كي أكون رقيقًا....

أغلقت الباب بأعنف ما استطعت، ووقفت ألهث خلفه لثوان.. ثم أدرت المفتاح في القفل.

سمعت صوتها من وراء الباب، ممزوجًا بالضحك:

- توقعت منك الجفاء.. لكن ليس إلى هذا الحد...

❋ ❋ ❋

وقال الذئب للحملان الصغيرة:
- افتحوا يا صغاري.. أنا أمكم وقد عدت من السوق..
نظر الحملان إلى قدم الذئب البيضاء التي نثر عليها الدقيق، وكاد أحدهم يفتح المزلاج، لكن أخاه هتف في فزع:
- لحظة!.. هذه ليست أمنا!
كيف عرف ذلك؟.. لا أذكر بالضبط.. فقد عادت هذه القصة إلى ذاكرتي بعد ثمانية وثلاثين عامًا.. ودون سابق إنذار..

❋ ❋ ❋

صوت (براكسا) الناعم من وراء الرتاج:
- د. (رفعت)!.. أنت لم تقبل اعتذاري.. هذا واضح!

- لم لا تتصرفين يا فتاة؟!
قلتها في شيء من نفاد الصبر برغم محاولتي التماسك.. وأردفت.
- لا أحد يريدك هنا...
- يا لها من قسوة!
ثم ساد الصمت هنيهة..
بعدها عاد صوتها.. هل تخدعني أذناي أم أن صوتها صار أكثر خشونة وجدية وأقل دلالًا؟.. لا أدري.. إن الإيحاء يلعب دورًا هائلًا في هذه المواقف...
- د. (رفعت) أعتقد أن المزاح قد انتهى.. إن كلينا يفهم الآخر..
- بالتأكيد..
- إذن عليك أن تفهم أن هذا الباب المغلق لن يحميك مني.. كل أبواب الأرض لن

تفعل..

- حقًا؟

انفجر الصوت يضحك.. تلك الضحكة السمجة المنتصرة..

- أنت تعرف ما هو الرعب.. وأنا الرعب ذاته في صورة إنسان.. سأطاردك خلف كل باب.. وراء كل حائط.. أسفل كل نافذة.. ستجدني تحت فراشك قبل أن تنام.. وفي كل حلم من أحلامك.. ولن تجد مفرًا مني سوى الموت.. الموت تختاره بنفسك لنفسك.. صدقني يا د. (رفعت).. لا سبيل أمامك سوى أن تفتح الباب وتصغي لما أقوله لك!

كانت صادقة.. نبرات صوتها توحي بالصدق..

يجب أن أواجه هذا (الشيء) وإلا غدت حياتي كلها جحيمًا.. أنا أعرف كيف سيفسد الرعب كل شيء، ولن أجد موضعًا آمنًا أذهب إليه بقية عمري.. إنني أفضل الموت العاجل على الموت البطيء..

سأفتح الباب.. وليكن ما يكون....

* * *

كانت واقفة على مدخل الباب تبتسم في انتصار..

وحين سمحت لها بالدخول ورأيت وجهها في ضوء الصالة، أدركت أن التجاعيد تزايدت في ملامحها، وأن خصلات عديدة من الشعر الأبيض غزت رأسها....

دخلت إلى الصالة.. وجلست على أريكتها المعتادة.. فجلست أمامها وأشعلت لفافة تبغ.. ثم غمغمت:

- يبدو لي أن وقتك صار ضيقًا..

وناولتها لفافة تبغ أخرى وأشعلتها لها.. قالت وهي تنفث الدخان وقد أرجعت رأسها للوراء كعادتها:

- بالفعل.. لهذا جئت أعقد معك صفقة..

- هل أنا أتحدث الآن مع فتاة أم مع كائن؟

نظرت في عيني.. وابتسمت.. ثم همست:

- منذ أعوام لا أعرف عددها وأنا أهيم بين البشر.. كروح حائرة تبحث عن مأوى.. عشت في (النرويج).. في (زامبيا).. في (المجر).. ثم بلدكم الدافئ الذي جئته منذ شهور.. كنت حدادًا.. مثالًا..

راقصة باليه.. محاربًا في جيش (هانيبال).. فلاحًا في (منغوليا).. ساحرًا في في (الكونغو).. مهندسًا في (مصر)..
- والآن طالبة آداب اسمها (براكسا).. وغدًا طبيب أمراض دم اسمه (رفعت إسماعيل).. هل أخطأت التخمين؟
- أنت ذكي ولم تتجنب الحقيقة.. أنا مضطر لسكنى أجساد البشر.. لكن هذه الأجساد تبلى سريعًا ويكون علي أن أجد جسدًا آخر بسرعة..
- لهذا أغرقت (أحمد عبد الرحمن) في النيل وأخذت جسده ليجد رجال الشرطة ذلك المهندس البائس (محمود أبو زيد) وقد فرغت منه الحياة...

- هذا صحيح.. كانت هناك حسناء اسمها (براكسا) هي أول من رأى (أحمد عبد الرحمن) لحظة خروجه من الماء.. وأدركتُ أن الدور عليها بعد أن يبلى جسد هذا الأخير.. صادقتها وأقمت علاقة عاطفية معها - لحسن الحظ أن (أحمد) كان وسيمًا - ثم أخذتها في السيارة إلى (كفور داود).. وهناك أغرقت السيارة في الماء.. كانت هذه هي نهاية قصتي مع جسد (أحمد) وبدايتي مع (براكسا)..

- والآن (براكسا) تبلى.. وجاء دوري أنا..

- هذا صحيح.. لكني أعرض عليك صفقة لا بأس بها يا د. (رفعت) باعتبارك أول من فهم السر في هذا البلد..

ووضعت (براكسا) ساقًا على ساق.. وأردفت:

- لقد حان وقت الخلاص من (براكسا).. ولا يتأتى هذا إلا بإغراقها معك.. وتحت الماء أستطيع مغادرة جسدها ودخول جسدك.. وسيجدها الناس مجرد جثة غارقة قد بدت عليها مخايل الكهولة.. أما أنت فستغادر الماء باحثًا عن ضحية قادمة.. والعرض الذي أقدمه لك يا د. (رفعت) هو أن تجد لي شخصًا مناسبًا كي يغرق مع (براكسا).. كبش فداء عنك إذا أردت الدقة..

- هبني انقضضت عليك الآن وقتلتك أو قيدتك؟

- لن تستطيع... إن (براكسا) ميتة بالفعل منذ غرقت السيارة.. هي مجرد حذاء استعمله للتنقل.. والميت لا يمكن قتله!

ثم أضافت وهي تبتسم بخبث:

- إنني سأملأ الكون صراخًا وعويلًا وسيأتي كل سكان البناية ليروا د. (رفعت) يهاجم فتاة في شقته.. أنت لا تحتمل فضيحة كهذه يا د. (رفعت) خاصة أن قصة (الكائن) تبدو نوعًا من الهلوسة التي لا يصدقها عاقل..

يا له من موقف!..

لقد واجهت كل شيء.. رأيت (لوخ نس)، وتسابقت مع (الزومبي) وتصارعت مع (العساس)، واشتبكت مع نبات (الموكاسا).. لكني - للمرة الأولى في

حياتي وأحلامي - أجلس مع مسخ أناقشه بهذه البساطة والعقلانية..

سألت الفتاة وأنا أشعل لفافة تبغ ثانية:

- ما أنت؟

هزت رأسها في ملل، وداعبت خصلات شعرها:

- تعني (من أنت؟) طبعًا.. حسن.. أنا كائن بروتوبلازمي هلامي فائق القدرات.. لا أعرف بدايتي.. وأظن أنني كنت دائمًا هنالك.. لربما جئت من كوكب آخر بين أجزاء شهاب.. ولربما أنا ربيب الأرض، لا أدري.. فقط أعرف أنني سأظل أفعل هذا الذي أفعله حتى تحين الساعة.

- ولماذا كتبت لي ذلك الخطاب الملفق؟

- لأنك بدأت تفهم.. ولم أكن أريد أن تفر مني قبل أن أنجح في إغراقك.. كتبت لك اعتذارًا بسيطًا على أمل أن يزيل علامات استفهامك وعندئذ يمكننا أن نخرج معًا.. ومن يدري؟.. لربما طلبت منك نزهة نيلية تنهي هذا الإشكال!

أما الآن.. فمن الصعب أن أقنعك بالخروج معي.. إن وقتي ضيق لهذا أقدم لك هذا العرض السخي..

- سؤال واحد.. هل تظنين حقًا أنني سأذهب إلى واحد من الجيران وأطلب منه أن يذهب معك لتغرقيه؟!

- هي مشكلتك..

وضعت أنا الآخر ساقًا فوق ساق بحثًا عن الاسترخاء.. وقلت وأنا أشعل لفافة تبغ

(الثالثة في ربع ساعة):
- وماذا يرغمني على الاستجابة؟.. سأتركك تستهلك هذا الجسد وتفني.. أما عن نفسي فلن أقترب من الماء لمدة شهر.. وبهذا يكون آخر مسمار في نعشك قد دق!
مالت إلى الأمام ونظرت إلى عيني في سخرية:
- هل أنت بهذه السذاجة حقًا؟
- لا أفهم..
- هل تظن أن قوة الفتاة مازالت قوة فتاة كما هي بعد ما احتللت جسدها؟!.. إنني قادر - إذا أردت - على حملك كالطفل وإغراقك في بانيو الحمام.. بعدها سأغمر رأس الفتاة تحت الماء بذات الطريقة.. ويتم التبادل دون مشاكل..

- إذن.. لماذا لا تفعل دون ثرثرة؟
- لأني غير راغب في إيذائك.. لقد بدأت تروق لي إلى حد ما ويصعب علي أن أدمر كائنًا على قدر من الذكاء..
- نفس المنطق الذي يجعل قتل دجاجة أسهل من قتل الكلب.. أليس كذلك؟
- بلى...
يا له من جنون!..
يصعب على أن أصدق أن هذا الموقف وهذه الكلمات حقيقية.. إن قصة رائعة تنضم إلى قائمة ذكرياتي الآن.. بشرط ألا تكون هي ذيل القائمة..!
في الواقع أنا قادر على الفرار.. أستطيع في أية لحظة أن أركض للباب، المشكلة هي ما سيحدث بعد ذلك.. سأظل أنتظر في

أية لحظة أن تهاجمني - أو يهاجمني - هذا الكائن ويغمر وجهي في الماء.. لن أجد الراحة أبدًا في أي مكان...
كلا.. إنني أفضل أن ينتهي الأمر الآن.. وهنا....

* * *

أمسكت بكتفي الأيسر وأصدرت أنينًا مروعًا.. وارتميت على الأريكة محاولًا أن أخترقها إلى الأعماق.. وسقطت لفافة التبغ من يدي لتحرق السجادة....
- ماذا بك؟
قلت محاولًا التماسك ومن بين أسناني:
- نوبة قلبية..!.. إن هذه الانفعـ...الات.. آه!.. سوف تقتـ... ـلني.. هاااااه!

وقفت أمامي.. وجهها في الظل.. الشك والحيرة في مسلكها:
الأريكة محاولا أن أخترقها إلى الأعماق..
- هل أفعل لك شيئًا ما؟.. لا أريد أن تموت بهذه الكيفية كما تعلم...!.
- الأقراص!.. النتروجلسرين!.. غرفـ... آه... ـفة.. النوم!
- حسن.. حسن..
وسمعت صوت كعبيها يمضيان في شيء من الهرولة إلى هناك..
وقبل أن تفهم هي ما حدث، وثبت إلى باب غرفة النوم وأغلقته خلفها.. كان آخر ما رايته وجهها المحملق الكريه يستدير نحوي حيث انحنت تفتش أدراج الكومودينو...

لقد كان مفتاح حجرة النوم مثبتًا في ثقب المفتاح من الخارج، وهي عادة عندي أن أغلقها كلما سافرت وأخذ المفتاح معي.. وهكذا أدرت المفتاح في القفل وأغلقته...

سمعت صوت زئيرها.. وسمعت قبضتيها الكاسحتين تدقان الباب مرارًا.. هو لا يعبأ بما يحدث لكفي (براكسا) الرقيقتين حتى لو هشمهما تمامًا.. لكني كنت واثقًا بأن لجسد الفتاة إمكانات محدودة ولن تقدر أبدًا على تهشيم الباب....

طبعًا هناك باب الشرفة.. وحتمًا ستفتحه.. لكن الشرفة لا تقود لأية غرفة أخرى.....

❋ ❋ ❋



أمسكت بكتفي الأيسر وأصدرت أنينًا مروعًا .. وارتميت على الأريكة محاولاً أن أخترقها إلى الأعماق ..

عدت إلى الحمام ففتحت الصيدلية ودسست تحت لساني قرصًا من (النتروجلسرين).. فقد بدأ الألم يمزق صدري حقيقة لا تمثيلًا.. كانت النوبة الأولى خدعة راهنت فيها على أنها لن تتركني لأموت بهذه السهولة.. كنت بحاجة إلى أن أسجنها بعض الوقت إلى أن أعرف ما أفعله بها..

أما الآن فإن الانفعال قد أنهكني حقًا.. وأنا بحاجة إلى الراحة بعض الوقت قبل أن أذهب لأفعل الشيء المعتاد...

أوقظ (عزت) طبعًا..!

❋ ❋ ❋

كان صوت ضربات الفتاة ومحاولات تهشيمها للباب شبيهًا بخنزير بري حبيس، ولقد هرعت إلى شقة (عزت) ومارست عمليات مماثلة مع بابه إلى أن فتح لي:

- بسم الله الرحمن الرحيم!.. ميعاد الرعب اليومي..

- لقد سجنتها في غرفة نومي يا (عزت).. سجنتها..!

- من هي؟

- يا لك من معتوه!.. الفتاة طبعًا..

- وما نفع ذلك..

شرعت أحكي له بأنفاس متلاحقة متهدجة ما كان بيني وبينها.. لم يبد عليه أنه صدق حرفًا لكن الذعر على وجهه كان حقيقيًا..

- وماذا تنتوي عمله معها؟.. تبلغ الشرطة؟

- بالطبع لا.. لن يصدقونا.. ما أنتوي عمله هو فتح الشرفة مع أول ضوء الشمس.. عندئذ سيغمر النور الحجرة.. إن هذا الكائن لا يظهر إلا ليلًا ويفر قبل الفجر.. فهل يعني هذا أن ضوء الشمس يدمره؟!..

تجربة تستحق المحاولة..

هرش رأسه في غباء.. وغمغم:

- وكيف ستفتح باب الشرفة؟.. إنها بالداخل كما تعلم..

- لهذا طلبتك كي تأتي معي.. سنقتحم الحجرة معًا ويلتحم معها أحدنا على حين

يفتح الآخر الشيش.. ونجرها مرغمة إلى الشرفة..

حك لحيته مفكرًا واستند إلى باب شقته:

- لكنها قوية كما قالت هي..

- لا أعتقد أنها أقوى من رجلين حتى لو كانا أنا وانت!

ومشى معي إلى شقتي وقد بدا عليه الاقتناع.. سيمضي الليل معي ثم ننفذ معًا في الصباح ما أزمعناه....

وعلى باب الشقة لاحظت شيئًا غريبًا...

❋ ❋ ❋

"تؤ!".

❋ ❋ ❋

- (عزت)!.. لقد اختفت الضوضاء!
- وماذا في ذلك؟.. لقد انتابها الإرهاق..
- لا أظن.. ربما هي تنتظر؟!

ودنوت في حذر من باب الغرفة وأطرقت محاولًا أن أسمع أفضل.. ثم بعد هنيهة مددت يدي إلى المفتاح..

صاح (عزت) في رعب وهو يمسك يدي:

- صبرًا..!.. ربما كانت خدعة.. وبمجرد فتح الباب ستخرج كالنمر الحبيس في وجوهنا..!

من يدري؟.. وربما كانت في الشرفة تبحث عن وسيلة للفرار.. وعندئذ لن يكون من الحكمة أن ندخل خلفها..

تراجعت يدي إلى جواري.. وهززت رأسي:

- إذن ننتظر حتى الشروق؟!

- ننتظر...

وهكذا - يا رفاق - جلست مع (عزت) في الصالة نرمق الباب الموصد في توجس.. وننتظر قدوم الشمس......

❋ ❋ ❋

الجزء التالي ليس من مذكرات الدكتور (رفعت إسماعيل)

كان (شريف الغمري) شابًا كأي شاب آخر.. يأكل جيدًا ويشرب جيدًا وينام جيدًا ويشاهد السينما ويستمع إلى أغاني (عبد الحليم حافظ).. كان يتمنى أن يتذوق هذا الإكسير السحري المسمى بالحب.. الإكسير الذي يتحدث عنه الجميع في الشعر والأفلام والأغاني، الجرثومة التي وجدت وسطها الحيوي الملائم في أغاني (عبد الحليم) وسواه...

كان في الخامسة والعشرين من العمر.. معدوم التجارب.. له تلك الملامح الدقيقة السمراء التي ورثها الشاب المصري من جده الفرعوني، وفي تلك الليلة كان قد أمضى أمسية أطول من اللازم مع أحد أصدقائه من سكان (الدقي) يلعبان الشطرنج ويثرثران عن الفتيات، وكلاهما يعرف أن الآخر كاذب مذع.. لكنهما لم يتهم بعضهما البعض بشيء....

إنها الثانية بعد منتصف الليل.. وهو يمشي في شارع (الترعة) يفكر في السبب الذي جعلهم يسمونه بهذا الاسم في هذا الحي الراقي.. هل كانت هناك ترعة هنا مثلًا؟.. أم ان....

وهنا حدث شيء مروع...

رأى شيئًا أبيض يهوي من إحدى شرفات العمارة التي تبعد عشرة أمتار عن موضعه.. شيئًا له ثقل وطاقة وضع فلا يمكن أن يكون مجرد ملاءة.. وسمع صوت الارتطام بالأسفلت فسقط قلبه عند قدميه.. إن ضوء القمر يفترش الشارع كله والرؤية لا بأس بها... هرع نحو الشيء الأبيض.. ووقف يتأمله... فأدرك أنه يرى فتاة ترتدي ثوبًا أبيض مكومة فوق الأسفلت كأنه لم تعد في جسدها عظمة سليمة واحدة.. ماذا يفعل؟.. يصرخ؟.. يفر؟.. يطلب الشرطة؟.. لكن الفتاة تحركت.. ببطء تحركت.. ثم إذا بها تجلس أمام عينيه المذهولتين.. كانت بارعة الجمال.. منهكة مبعثرة لكنها بارعة

الجمال.. ورآها تنظر نحوه فانحنى جوارها يتساءل متلعثمًا:

- هـ.. هل أنت سـ.. سالمة؟

هزت رأسها أن نعم.. ثم مدت يدها له كي يعاونها على النهوض.. مستحيل.. كيف تظل سالمة بعد سقطة كهذه؟

- هل.. هل سقطت من... أعلى؟

مرة أخرى ترفع عينيها نحوه:

- بل حاولت الانتحار لأنه لا أحد يحبني...

- ولـ.. ولكن.. لـ.. لماذا؟.. وكـ.. كيف؟

وشرعت تحكي له وهي مستندة إلى كتفه قصتها الطويلة مع حب فاشل، أدركت معه أنه لا أمان لرجل.. وطلبت منه أن يساعدها على الابتعاد عن هذا المكان..

في الساعات المقبلة ستنمو علاقة حب سريعة بين (شريف) والفتاة التي سيعرف أن اسمها (براكسا)... علاقة حب طالما تاقت لها نفسه الظمأى إلى السحب كالصحراء..، ولسوف تدعوه الفتاة إلى نزهة ليلية هادئة عندما يأتي المساء، ويعانق القمر صفحة الماء.. ولسوف يقبل (شريف) في حماس هذه النزهة التي داعبت أحلامه دهرًا...

كل هذا سيحدث فيما بعد.. أما الآن فهما يبتعدان ببطء عن مكان الحادث.. و (شريف) ما زال يتساءل عن كيفية نجاتها من سقطة كهذه.. لكنه قال لنفسه إن الأحمق فقط هو من يضيع الوقت في هذه الأسئلة التافهة....

إن الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء الشنيعة التي يراها واسعو الخيال..

وللأسف لم يكن (شريف الغمري) من هؤلاء.........

❋ ❋ ❋

خاتمة..

في الصباح اقتحمت أنا و (عزت) الغرفة مهيئين لمواجهة مسخ هائج كالبركان.. لكننا لم نجد أحدًا بالداخل..، دخلنا الشرفة - التي كانت مفتوحة - فلم نجد الفتاة.. لقد طار العصفور.. ولكن كيف؟

لفت (عزت) نظري إلى قطعة ممزقة من ثوب أبيض تعلقت بسور الشرفة.. وإلى حذاء أبيض دقيق ملقى على الأسفلت أسفل البناية.. عندئذ فهمت أنها قفزت من هناك مفضلة الانتحار على مواجهة النهار بكل احتمالاته المفزعة بالنسبة لها....

من هي (براكسا)؟.. من هم أهلها؟.. كيف لم تعد إليهم كل هذه الفترة؟

أنا واثق من أن صورتها تتصدر إحدى نشرات (خرج ولم يعد) في مكان ما.. وبالتأكيد لها اسم آخر حقيقي لا نعرفه..

دق جرس الهاتف فرفعت السماعة لأسمع (رضا) يصرخ:

- (رفعت)!.. لا يوجد أطباء اسنان من (كفور داود).. ولا أحد يدعى (نجيب) في البلدة بأسرها.. أنا متأكد من كلامي.. إنهم يخدعونك يا (رفعت).. يخدعونك!

- أعرف هذا يا (رضا) وإنني لشاكر فضلك..

- أقول لك ألا تقدم.. لا ترتبط بهذه الفتاة.. لا مزاح في مواضيع الزواج هذه!

على الرغم منى ابتسمت.. وشكرته.. ووضعت السماعة..

* * *

لم تعد (براكسا) قط.. ولم أرها أو أسمع عنها...

هناك تفاصيل عديدة تفوت الصحف وتفوتني.. كنت أتوقع أن أقرأ خبر العثور على جثة فتاة غريقة شاب شعرها.. لكني لم أقرأ خبرًا كهذا ربما لأنهم لم يعثروا عليها قط....

أنا أعرف أن هذا الكائن يبحث عن وقود دائم من الأجساد البشرية.. فهل هو ما زال في (مصر) أم رحل بعيدًا عنها إلى (سيبريا) أو (تمبكتو) أو أي بلد ناء اخر؟..

هل سيعود لي مرة أخرى؟..

إن هذا الاحتمال لم يعد يفزعني.. فأنا اليوم في السبعين من العمر ولا يمكن القول إن موتي الآن هو خسارة لأحد.. حتى أنا...!

لكنني - في سن الأربعينيات - كنت أرتجف فرقًا في كل ليلة أسمع فيها صوت كعبي أنثى على سلم داري...

وبالطبع لم أستطع أن أعود إلى موضوع (هن - تشو - كان) قبل أسبوع كامل استرجعت فيه روعي ورباطة جأشي...

إن الليالي المقمرة عالم ساحر.. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المفزعة التي يراها واسعو الخيال.. ولم أكن أعلم أنني واسع الخيال إلى هذا الحد..!

* * *

لقد كانت قصة الليلة كابوسية إلى حد ما، وإنني لأستميحكم العذر..

لكن قصة الليلة القادمة لن تقل قتامة عن هذه.. فهي تلعب حول تيمة (الرعب من المعارف).. تيمة (البارانويا) الخالدة..

لكن هذه قصة أخرى.....

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايـات تحبس الأنفـاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة حسناء المقبرة

الليالى المقمرة عالم ساحر .. هذا بالطبع إذا ما تغاضينا عن الأشياء المفزعة التى يراها واسع الخيال .. والليلة اكتمل القمر بدرًا .. و(براكاسا) كانت هناك .. عندئذ عرف د. (رفعت إسماعيل) أنه إنسان واسع الخيال .. واسع الخيال إلى حدّ مخيف!



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الغرباء

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

أسماء القرى (كفر بدر) و (كفورداود) وهمية، فلا داعي لأن يجهد ساكنو (الشرقية) أنفسهم بحثاً عنها. !.

[←2]

)بوسيدون) أو (نبتون) في معتقد الإغريق الوثني هو إله المحيطات.

[←3]
كانت الوجودية هي الموضة في تلك الأيام.. أيام (فيتنام) وثورة الشباب و (الهيبز) وفن البوب.